دراسات في الأدب والشعر

الفجْرُ الصَّادِق

دراسة في
تحديات الأدب المعاصر

دكتور
حلمي محمد القاعود

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

810.9 القاعود، حلمي محمد .
ا . ح
الفجر الصادق (دراسة في تحديات الأدب المعاصر) / حلمي محمد القاعود.- ط1.- دسوق : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،2022 .
154 ص ؛ 17*24 سم (دراسات في الأدب والشعر)
تدمك : 8 – 770 -308 -977 -978
1. الأدب العربي – تاريخ ونقد.
أ. العنوان

رقم الإيداع : 14174

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركزي
هاتـف- فاكس : 0020472550341 محمول : 00201277554725
00201097564757
E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

2022

المحـــــتويات

استهلال

في هذه الفصول معالجة مبسطة لواقع الأدب العربي المعاصر.

لماذا تراجع؟ وما التحديات التي تواجه مستقبله، وكيف انقلبت المعايير الأدبية والنقدية جراء الضعف العام في اللغة والتعليم والإعلام؟

ما هو الدور السلبي للثقافة الرسمية في إعاقة النهضة الأدبية وتراجعها؟ وما نصيب الثقافة غير الرسمية في هذا المشهد؟ وما دور بعض المنسوبين إلى الحركة الإسلامية في هذا المشهد؟

من حين لآخر تطرح التساؤلات عن الواقع الأدبي وما يجري فيه وما يحدث للأدب والثقافة عموما، في ظل رواج غير مسبوق لبعض الظواهر التي شاعت وانتشرت، نتيجة عوامل مختلفة، داخليا وخارجيا. مثل ظاهرة المثقف الاستعمالي الذي ترعاه جهات نافذة، بينما يتوارى المثقف الرسالي أو العضوي الذي يحمل رسالة اجتماعية مهمة، ويكاد يختفي.

هناك ظواهر أخرى هيمنت على الواقع الأدبي المعاصر، مثل شيوع الكتابة الروائية الرديئة على حساب الشعر، وهيمنة أدب الصورة (الدراما والسينما) في نقل الأفكار والتصورات وجذب الجمهور للمشاهدة والمتعة الفنية. نجحت بعض الدول مثل الهند والمكسيك وإيران وتركيا في تقديم أدب الصورة، بينما أخفق العرب في تقديمه، مع ملاحظة أن أكبر نسبة مشاهدة لهذا الأدب مدبلجا أو مترجما

كانت بين الناطقين بالعربية. لقد سبقت مصر في السبعينيات والثمانينيات إلى تقديم مثل هذا الأدب، الذي يتجه في معظمه نحو التاريخ، وحقق نجاحا ملحوظا كما رأيناه على سبيل المثال في فيلمي الرسالة وعمر المختار ومسلسلات محمد رسول الله، وعمر ابن عبد العزيز والفرسان... ومع تراجع الأفكار وتقدم الرغبة في الأرباح وظهور نوعية من المنتجين لا يملكون الثقافة الرفيعة ولا الرؤية الناضجة تراجعت الدراما والسينما، ولم تعد هناك فيما بعد أعمال ذات قيمة كبرى. صحيح كانت تحدث استثناءات قليلة كما رأينا في بعض أعمال المخرج السوري حاتم على مثل التغريبة الفلسطينية وربيع قرطبة وصقر قريش والخليفة عمر بن الخطاب.. ولكنها ظلت استثناءات لا تشكل تيارا عاما يناغي الوجدان العربي الإسلامي.

في المناخ الذي يشيع فيه حضور المثقف الاستعمالي على حساب المثقف الرسالي تختلف المعادلة، وتطرد العملة الزائفة العملة الجيدة. ولهذا سادت أعمال هابطة وأدب ضعيف، ومعايير غير موضوعية. ولحسن الحظ فإن العقد الأخير شهد تقديم أعمال درامية وسينمائية ذات قيمة عالية، شدت إليها الجمهور العربي ، فضلا عن التركي مع أنها لا تستخدم ما يسميه تجار الفنون بالبهارات والتوابل، مثل: العري والابتذال السلوكي، واللغوي، والعلاقات المتحررة. كانت هذه الأعمال قادمة من تركيا تتحدث عن تاريخ الأتراك الإسلامي، وبناء الدولة العثمانية وسقوطها، وجهادها ضد المغول والصليبيين، و أبرز الزعماء والقادة والعلماء.. من خلال

تصور إسلامي ناضج يعلي من شأن القيم الخلقية الرفيعة، وفي إطار فني محترف يجيد تقديم الفكرة ويُقنع بها. لقد تناولت بعض هذه الأعمال وتوقفت عندها في قراءة سريعة لتكون دليلا على أن العمل الجيد بدون بهارات وتوابل يمكن أن يجذب المشاهدين بعشرات الملايين في أرجاء الأرض، ومنها (قيامة أرطغرل وعثمان المؤسس وكوت العمارة وعاصمة عبد الحميد)، وأيضا فإن الأعمال الجيدة يمكن أن تكون مثالا يحفز الكتاب والأدباء والمنتجين لتقديم أعمال مماثلة في بيئات إسلامية عديدة.

لقد أصاب هبوط المستوى الأدبي فيما يبدو الآداب المعاصرة التي تُعزى إلى المركزية الأوربية، وهو ما جعل ناقدا شهيرا مثل تودروف ينتفض من أجل مستقبل الأدب، وقد ألحقت بهذه الفصول حوارا أجرته مجلة لا كروا الفرنسية مع تودروف وبيغوا، وترجمه عبده حقي، ليرى القارئ إلى أي مدى تفرض قضية النهوض بالأدب العربي نفسها على الحقل الثقافي، ومعالجة سلبياته..

لا ريب أن الاهتمام باللغة وإصلاح التعليم والإعلام، وتهيئة مناخ عام متحرر من الفهلوة والإقصاء والاستئصال ستؤدي إلى وضع أفضل للأدب واللغة والحياة جميعا.. ولعل صفحات هذا الكتاب تقود إلى حوارات حقيقية وجادة تصنع فجرا صادقا من خلال خطوات عملية لإنقاذ الثقافة والفكر، ونهضة قوية للأدب العربي تستعيد مسيرته في خدمة المجتمع وتحريره من القيود والمعوقات.

والله من وراء القصد.

حلمي محمد القاعود

1- لماذا تراجع الأدب المعاصر؟

في فترة قريبة مضت قرأت بعض الأخبار الأدبية عن دعوة وجهتها لجنة فحص الروايات بجائزة أدبية شهيرة إلى إحدى الكاتبات للتقدم بروايتها بعد فوات الوقت المحدد لقبول الأعمال المتنافسة. يبدو أن الكاتبة التي تحظى بتأثير واضح على اللجنة المذكورة كانت تتمنّع لأمر ما، ولكنها في آخر الأمر قدّمت روايتها التي أعلن فوزها على الفور!

اتيح لي أخيرا أن أقرأ هذه الرواية الفائزة، وللأسف لم أجد فيها قيمة أدبية حقيقية أو مذاقا إنسانيا يوحي بأنها تخاطب الحياة. كانت أقرب إلى تقديم دعوة إلى الموت الحقيقي والمجازي. كل ما فيها ينضح بالقبح والدمامة والبؤس الشعوري. حتى اللغة والصياغة والتركيب، كانت كلها بعيدة عن البناء الجمالي الممتع. صفحات الرواية تفيض بالسلبية والهروب من مواجهة الواقع، فضلا عن اكتظاظها بالجنس المقزّز، والشذوذ المثلي، والخداع السلوكي، والدم المسفوك، والابتزاز الرخيص، واللصوصية البشعة، والمسوّغ لذلك كله يتمثل في إشارة خاطفة إلى أن الشخصية الرئيسة تعرضت للتعذيب في سجون النظام! أي نظام؟ ومن أجل ماذا؟ وكيف؟ لا نعرف. المهم أن الرواية تجعلنا نعيش في مستنقع لا تضيء فيه قيمة إنسانية، أو عاطفة بشرية نقية، أو شعور فطريّ طبيعيّ. لقد تحول

الإنسان العربي في الرواية إلى مشرّد في عشوائيات أوربة وشوارعها الخلفية المظلمة، لا يمت بصلة إلى العرب- بلاش المسلمين- ولا إلى قيمهم ولا إلى همومهم، ولا تبدو لديه قضية تتجاوز حاجاته البيولوجية وجواز السفر.

اهتمامات هامشية

هذا نموذج للأدب السائد اليوم الذي تشجعه وتحضّ عليه بعض الجهات التي تملك المال والنفوذ والقدرة على التخطيط لما تريد، لذا نفتقد أدبا عربيا يتوافق مع حركة التطور الاجتماعي وارتفاع عدد المتعلمين وحملة الشهادات العليا.

للأسف فقد تراجع المستوى التعليمي والإدراكي، لحساب شيوع بعض الاهتمامات الهامشية غير المثمرة، وخاصة بعد التوسع في استخدام الإنترنت أو الشبكة الضوئية. وترتب على ذلك ضحالة المستوى الأدبي والفني في النصوص المكتوبة على الورق أو المنشورة في الفضاء الإلكتروني. لقد تراجعت اللغة الأداة الأولى للتعبير، وصارت الروايات والقصائد والمسرحيات والدراسات الأدبية والموضوعات الصحفية بل العناوين الرئيسة، مليئة بالأخطاء الإملائية والنحوية والتركيبية، فضلا عن تشوّش الرؤية وخلل التصور، وكل هذا يجد ترحيبا آليا في دور النشر والصحافة التي لا تعرف مصطلح مدقق أو مصحّح، فتظهر الأعمال الضعيفة والرديئة، التي يتوّج بعضها بجوائز كبيرة وصغيرة، ثم إشادات

عظيمة بالفائزين ممن تنصّبهم الحظائر الثقافية في العواصم العربية، نقادا وباحثين ودارسين ومتابعين!

انهيار التعليم

تاريخيا بدأت عملية التراجع مع انهيار التعليم والثقافة في بعض الدول العربية المؤثرة قبل ستين عاما تقريبا، حين صار الهدف العام تخريج أكبر عدد من حملة الشهادات، دون الاهتمام بالمستوى أو الكيف، ثم سيطرة التيار الشيوعي وما يشبهه على المرافق الإعلامية والثقافية والتعليمية والفنية كافة، وتوجيهها بما يبعدها عن الثقافة القومية والإسلامية والخلقية التي عُدّت في أدبيات هذا التيار ومن والاه رجعية وظلامية وتخلفا!

ثم تدخلت بعض السلطات في تجنيد بعض من يسمونهم مثقفين وأدباء ليكونوا عيونها على الحركة الثقافية والأدبية، ووصل الأمر إلى حد انعقاد أول مؤتمر لما سمي بالأدباء الشبان في إحدى الدول العربية تحت رئاسة وزير الداخلية في فترة الستينيات وكان مشهورا بالقسوة والوحشية وكان أعوانه الكبار في المؤتمر من الشيوعيين وأشباههم، وصار بعضهم ضيفا دائما على مكاتب المسئولين الأمنيين ليحدثهم عن زملائه ورفاقه وخاصة ممن يتصعلكون في مقاهي العاصمة وخماراتها..

منذ ذلك الحين تقريبا لم نجد موهوبين كبارا، أو أصحاب رؤية إنسانية تمثل روح الإسلام وحضارته، وباسم التجديد والحداثة صار أصحاب المواهب الضحلة الذين لا يقرءون ولا يتثقفون ثقافة

حقيقية ولا يملكون الأدوات الأولية للتعبير، هم أعلام المرحلة والمراحل التالية.. تتردد أسماؤهم في الصحف والإعلام والمؤتمرات دون الموهوبين الحقيقيين، فلا تعرف الأجيال الجديدة غيرهم، وامتدت الكارثة إلى الجامعات والباحثين والنقاد، الذين يطالعون الصحف ويفتحون الإذاعات ويشاهدون القنوات فلا يرون غير أسماء هؤلاء وأشكالهم وشخوصهم، أما الموهوبون الحقيقيون والجادون، فغائبون أو مغيّبون، وأضحت عملية الإقصاء بل الاستئصال أمرا عاديا منذ ذلك الحين، فقد مكنت السلطة المعادين للإسلام من الشيوعيين وأشباههم من الاستيلاء على الصحف والمجلات ودور النشر الرسمية، وامتدّ نفوذهم إلى وسائل الإعلام والثقافة والتعليم غير الرسمية. وشكلت أجهزة الثقافة بالنسبة للقوم بقرة حلوبا يحلبونها، ويستحلون أموال المسلمين الأغنياء والفقراء بغير حق، نظير محاربتهم للإسلام، ونشر ثقافة معادية للوطن والأمة والإنسان، من أجل هذا يدافعون عن الوزارة وأجهزتها، كي لا يفقدوا الحليب (الحرام!)، لدرجة أنهم خوفا على مكاسبهم غير المشروعة، بعد ثورة 2011م في مصر احتلوا وزارة الثقافة ومنعوا وزيرها الرسمي من دخول مكتبه لمدة شهر، إلى أن سقطت الوزارة والوزير!

منهج شيطاني

كان الإقصاء أو الاستئصال لكل صوت موهوب جاد، يردد اسم الله، أو يحمل روح الإسلام، منهجا شيطانيا يسير على هديه هؤلاء، فلا ينشر للموهوب الجاد المسلم مقال في جريدة أو مجلة ولا يصدر له كتاب ،ولوكان من أعلم أهل الأرض أو أكثرهم موهبة، وفي الوقت

الذي ينشرون فيه الآراء والأفكار المعادية للإسلام بكثرة ملحوظة، وحفاوة بالغة وسرعة صاروخية، فإنهم لا يسمحون بالرد على ما ينشر وتصويبه من أهل العلم والاختصاص، وقد اشتكى شيخ الأزهر الحالي من أنه لا يستطيع الرد في الإعلام الرسمي على ما يشوّه الإسلام ويسيء للأزهر، وقد رأينا قبل شهور كيف كان موقفهم العدواني من الإسلام حين ردّ شيخ الأزهر على أحد المتحدثين الداعين إلى تغيير الإسلام باسم تجديد الخطاب الديني!

أذكر أن أحد أصدقائي وكان يعمل في هيئة نشر رسمية طلب ذات يوم بعض كتبي لنشرها، قلت له: لن ينشروها. فأثني على أعمالي وقال: إنك تتحامل عليهم! قلت: لننتظر. وكانت النتيجة تقريرا يقول فيه المحكّم وهو أستاذ جامعي محترم: إن الكتب تهاجم إحدى الدول العربية مما يسيء للعلاقات بين دولتنا وهذه الدولة! كانت الكتب في النقد الأدبي تتناول روايات وأشعارا لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالدولة المذكورة أو السياسة، ولا يرد فيما كتبت اسم هذه الدولة أو غيرها. ولكن القوم لهم قوانينهم.

هكذا تسير الأمور في الواقع الثقافي والأدبي، وفي الوقت الذي يحجبون فيه الأعمال الجيدة لأن أصحابها ليسوا على هوى المتحكمين في الثقافة الرسمية وغير الرسمية، يتم الإلحاح على بعض الكتابات التافهة وطبعها مرات عديدة في جهات رسمية عديدة، وتكتمل ذروة المأساة حين يجمع الكاتب الضحل كتاباته لتنشر تحت ما يسمى الأعمال الكاملة، في مقابل مكافآت سخية من جيب الشعب المسكين، ثم تعود المطبوعات إلى المخازن لتكون وليمة ممتدة لفئران الحيّ القريبة!

ميليشيات أدبية

والأخطر من ذلك نشوء ما يمكن أن نسميه ميليشيات أدبية تنتشر في المقاهي التي يجلس عليها صعاليك الأدب، ويقودها من يسمون أنفسهم بالنقاد اليساريين الكبار، ومهمة هذه الميليشيات إخضاع من يريدون الانضواء تحت راية الأدب والثقافة من الشباب (أكثرهم عاطلون أو شبه عاطلين)، وتبدأ عملية الإخضاع بامتهان الشاب وتحقيره، وتنتهي عندما يعلن ولاءه للفتوة الشيوعي الذي يدخله جنة الوزارة أو ما عرف بالحظيرة الثقافية حيث يجد المال والشهرة وصك الاعتراف!

وتعجب لأن هؤلاء القوم يرفعون راية حرية الفكر والتعبير، ومقاومة الظلم والقمع، ولكنهم يمارسون كل الموبقات، ويقفون ضد حرية التفكير والتعبير بكل قوة ووما يملكون من نفوذ، ويدعون أنهم مناضلون وثوريون وديمقراطيون، وأصحاب مبادئ وقيم، ثم لا تجد شيئا من ذلك. تجد المصلحة الشخصية وحدها، والانتهازية الرخيصة فقط، والعداوة الرخيصة للإسلام.

من المفارقات أن الصحافة الأدبية في العهد الملكي وتحت الاحتلال الأجنبي؛ كانت أكثر ثراء وانتشارا وتعبيرا عن هوية الأمة وتراثها ومستقبلها ،وكانت تتجاور فيها الآراء المختلفة ويتداخل القراء لإثراء المناقشات والمفاهيم والقضايا، وكان للكلمة تأثيرها الفعال، وكان القراء في وجود نسبة الأمية المرتفعة أكثر من القراء في الوقت الحالي، فكانت "الرسالة" مثلا توزع ستين ألف نسخة في كل أسبوع

عندما يكتب فيها مصطفى صادق الرافعي (انظر: علي شلش، المجلات الأدبية: تطورها ودورها، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ،1988،ص 126)، بينما جرت النكتة الأدبية في العقود الأخيرة عن مجلة رسمية بأن عدد المرتجع منها أكثر مما يطرح في الأسواق! لقد سيطر الشيوعيون وأشباههم على المجلات الأدبية والثقافية فحولوها إلى إقطاعيات خالصة لهم ولأتباعهم ينشرون فيها إنتاجهم الغث الرديء، فطردت القراء، ولم تثر اهتمام أحد إلا عندما نشر بعضها صورا إباحية! لقد اكتفوا بتقاسم المكافآت، والتفاخر بإنجازات خرافية لا ظل لها على أرض الواقع. قبل ربع قرن من الزمان أعلن وزير ثقافة أسبق أن المثقفين دخلوا الحظيرة. أي رضخوا لإرادته، وإرادة السلطة، وطلّقوا وظيفتهم في رفع الوعي وتنمية الفكر والدفاع عن الحرية والهوية والجمال، والارتقاء بالأدب والذوق والثقافة، وكان هذا إعلانا بموت الثقافة مثلما ماتت السياسة والحريات والقيم والتقاليد والأخلاق.. والضمائر.

سيولة القيم

صار المنتج الأدبي السائد في الواقع الثقافي يعادي اللغة الراقية والمضمون الإنساني. واضحت سيولة القيم هي الطابع العام لمعظم ما ينشر أو ينشره المهيمنون على الساحة الأدبية والثقافية. إذا تحدثتَ عن الاهتمام باللغة والقواعد الأدبية والتقاليد الفنية، عدّوا ذلك من مخلفات الماضي، وإذا أشرتَ إلى التقاليد الأدبية والفنية، قالو: نحن نجدّد ونحدّث، وهي دعوى حق أريد بها باطل، فالشخص

الذي لا يفقه شيئا في عروض الشعر، يقول إنه يجدد في فن الشعر، من خلال ما يسمّى قصيدة النثر! طيب، ما قوانين هذه القصيدة؟ أليس لكل فنّ قوانينه وأصوله؟ يرد عليك: القصيدة تصنع قانونها! سفسطة وثرثرة وخواء وضحالة، ومع ذلك يتم التمكين لأصحابها في الإعلام الضارب أو الدعاية القوية.

القوم يصنعون أدباء ومثقفين من الورق المقوّى، ويمنحونهم لقب "المبدع"(!) ولا يخجلون من مديح أنفسهم، مع أن مادح نفسه كذّاب كما يعلمنا الأثر. ثم إنهم يلحون على ذكر آحاد لا ثاني لهم عند ما يكتبون أو يتناقشون يقولون لك: نجيب محفوظ، أدونيس، سعد الله ونوس، وكأن من خلق هؤلاء لم يخلق غيرهم عشرات بل مئات الروائيين والشعراء والمسرحيين. إنهم يصنعون فرعونا أدبيا يعبدونه على غرار كهنة آمون. وبالطبع لا يأتي ذكرهم أبدا على اسم شاعر مثل محمود حسن إسماعيل ولا روائي مثل نجيب الكيلاني ولا مسرحي مثل علي أحمد باكثير، لأن واحدا منهم لم يتخل عن إسلامه ولم يكفر بدين الله.

إن تراجع الأدب المعاصر في البلاد العربية، وتهافت مستواه الفني والفكري يستدعي اهتماما كبيرا من القابضين على الجمر في ثقافتنا المعاصرة، فالأدب مرآة لتراث الأمة وحاضرها ومستقبلها، وأحسب أن الدعوة للأدب الإسلامي، انتفاضة على واقع أدبي بائس، من أجل إعادته إلى طريقه الطبيعي، وتجديده بمتغيرات العصر والمستقبل.

***

2- قميص رونالدو .. باللغة العربية

لم يتح لي أن أشارك هذا العام 2019في الاحتفال بيوم اللغة العربية. كانت الجهة التي أعمل بها تستضيف علما من أعلام اللغة لتكريمه، وإلقاء بعض البحوث المتعلقة، وكان من المقرر أن يكون التكريم هذا العام للعالم الأديب الكبير "سعد مصلوح"- أطال الله عمره، ولكن عذرا طرأ فلم يتمكن من الحضور، وجدّت ظروف أخرى فتأجل الاحتفال إلى موعد آخر!

لفت نظري خبر يتعلق باللغة العربية في مجال كرة القدم. فقد استضافت مدينة الرياض مباراة السوبر الإيطالي بين نادي يوفنتوس الذي يضم اللاعب البرتغالي الشهير رونالدو، ونادي لاتسيو على ملعب الجامعة. قررت إدارة يوفنتوس أن يرتدى لاعبوها فى المباراة قمصانا مكتوبا عليها أسماء اللاعبين باللغة العربية.. وطلبت إدارة يوفنتوس من شركة "أديداس" المعروفة تصميم هذه القمصان بمساعدة الفنان والخطاط السعودي المغربي شاكر كاشجري الذى كتب أرقام اللاعبين وداخلها كلمة يوفنتوس باللغة العربية إلى جانب أسماء كل لاعب.. كانت المرة الأولى التي يلعب فيها فريق إيطالي أو أوروبي وأسماء لاعبيه مكتوبة باللغة العربية على قمصانهم..

أفادت إدارة يوفنتوس إنها قررت ذلك احتراما للغة العربية، حيث أقيم السوبر في أرض عربية بعد أربعة أيام فقط (2019/12/22) من الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية.. وكان لذلك رد فعل قوي

على المستوى الشعبي والثقافي، صبّ في صالح اللغة العربية، لغة البلاد والقرآن، فتحظى بالاحترام والاعتزاز لدى أهلها أكثر من يوفنتوس وتكتب أسماء لاعبيها باللغة العربية.

إقبال جماهيري

رأى بعض الناس أن إدارة يوفنتوس كانت تسعى لمزيد من الأرباح دون أن يعنيها أمر اللغة العربية احتراما أو تقديرا، فقد طرحت قمصان يوفنتوس المكتوب عليها أسماء اللاعبين باللغة العربية في الأسواق، وأقبل عليها الجمهور إقبالا عظيما، وتم بيع أعداد كبيرة ولم يقف سعرها الغالي جدا حائلا دون شرائها، خاصة قميص النجم الشهير رونالدو..

المفارقة أن شباب أمتنا العربية يرتدون قمصانا وسترات وسراويل مستوردة عليها صور تحتها أو فوقها أو حولها ألفاظ أجنبية، وقد يكون بعضها غير لائق، ومن يرتدي القميص أو السترة أو السروال لا يدري عنه شيئا، بل إن بعض المصانع العربية كي تبيع منتجاتها من هذه الملابس تؤثر اللغات الأجنبية ولا تلقي بالا للغة العربية، ولكن "بركات" رونالدو حلّت على اللغة العربية، فتهافت الناس على قميصه العربي وقمصان رفاقه العربية. ولعل ذلك يكون فاتحة خير لأمتنا وهي تستعيد هويتها العربية الإسلامية، من خلال اللغة القومية التي لقيت إهمالا جسيما من بعض أبنائها، وزراية مقيتة من بعض مسئوليها ومثقفيها وفنانيها، حيث يخطب بعضهم أو يكتب أو يؤلف أو يغني بلغات أجنبية، أو بلهجة عامية، أو بعربية ركيكة قبيحة.

بالطبع عارض بعض الإيطاليين ما فعله يوفنتوس مؤكدين أن إقامة السوبر في بلد عربي لا تعنى تخليه عن هويته الإيطالية وقمصانه التقليدية بعراقتها وتاريخها.. ورد النادي بأنه يرغب أن يتقرب من مشجعيه في أنحاء العالم المختلفة.

مهما يكن من أمر، فنحن مدينون بالشكر لنادي يوفنتوس الإيطالي الذي أعاد إلى الساحة الثقافية الميتة قضية الاهتمام بحياة اللغة العربية ومستقبلها، بعد أن أشبعت إدانة ورفضا من بعض مشاهير أهلها وغيرهم في مجالات الفكر والكتابة..

اصطناع العامية

لقد دعا مستشرقون وأجانب وعرب إلى تطوير اللغة العربية الفصحى وتيسيرها في التحدث والكتابة والإنتاج الأدبي والعلمي عن طريق اصطناع العامية أو اللهجة الدارجة. وادعي بعضهم أن التعبير بالعامية لا يمثل مشكلة، وأنه مجرد تعبير يجاور اللغة الفصحى. والمسألة ليست بهذه البساطة فهي منهج يكشف عن إرادة غريبة لتغيير هوية المجتمع، وتكريس وضع ثقافي جديد. يتخالف مع السياق الذي تعيشه الأمة، وتسعى للتقدم من خلاله. ولهذا لم يكن مستغرباً أن تظهر الدعوة إلى العامية، ويشتد اللغط حولها، كلما بدت بوادر يقظة الأمة ونهوضها، واستعدادها لمواجهة المحتل وأتباعه.. ولم يكن مستغرباً أيضاً، أن تتوافق بدايات الدعوة إلى العامية مع بداية الاحتلال البريطاني لمصر منذ «ولهلم سبيتا»

و«كارل فولرس» الألمانيين ومجلة المقتطف حتى السير ويليام ويلكوكس ودنلوب وسلدن والمور، وعبد العزيز فهمي وسلامة موسى.. والمفارقة أن الدول والجماعات التي حققت نجاحات على المستويات الاقتصادية أوالسياسية أو القومية الاستيطانية؛ كانت حريصة على لغتها الأصلية، ولم تنظر إلى اللغة بوصفها عائقاً من عوائق التقدم في حياتها، ولكنها نظرت إليها بوصفها دافعا من دوافع التقدم وإذكاء الروح القومية أو الدينية لتحقيق الأهداف الكبرى لهذه الدول أو الجماعات..

تجربة اليابان

فاليابان مثلاً بعد هزيمتها الساحقة في الحرب العالمية الثانية، واستسلامها لأميركا والحلفاء، لم تفرط في لغتها، وكان هناك اتجاه لاختصار عدد المفردات التي يتعلمها الطلاب في اليابان تحت دعوى تيسير اللغة والتفاعل مع المنجزات الحضارية الحديثة، ولكن المجلس الأعلى المختص بهذه المسألة قرر مضاعفة العدد الذي يتعلمه الطلاب من مفردات اللغة اليابانية، ولم يؤثر ذلك على مسيرة اليابان الاقتصادية أو الاجتماعية أو الحضارية، بل صارت اليابان عملاقاً يتحدى مستعمريه وغالبيه.. وفي الصين الشعبية، رفض «شو اين لاي»- رئيس الوزراء الأسبق . اقتراحاً لكتابة اللغة الصينية بالحروف اللاتينية، مع صعوبة اللغة الصينية الشديدة، وكانت حجة شو اين لاي «الشيوعي» هي الحرص على التراث الصيني!

أما الجماعات اليهودية التي جاءت من شتى أنحاء العالم، وكانت تتكلم لغات مختلفة، واستوطنت بالاحتلال فلسطين العربية المسلمة، فقد اتفقت على بعث اللغة العبرية بعد أربعة آلاف سنة، لتكون لغة خطاب، وإنتاج أدبي، وبحث علمي، وبعد ذلك لغة رسمية على المستوى العالمي للدولة العبرية الغاصبة، وقد عمل من أجل ذلك يهود من أصول مختلفة وجنسيات عديدة، قبل قيام الدولة العبرية وبعده.

المحور الذهبي

وقد جاءت النصوص التالية في كتاب «في الفكر اليهودي» المطبوع في مصر عام 1938، والصادر عن دار مجلتي للطبع والنشر:

«إن معرفة اللغة العبرية هي المحور الذهبي الذي يدور حوله كياننا القومي والديني، فاللغة العبرية الهابطة من جبال الأبدية، قد اختارها الله تعالى لنشر الحقائق.[ساباتو مورايس، يهودي أمريكي من أصل إيطالي ١٨٧٩]

«طالما سنظل يهودا، وطالما سننادي بأن التوراة كتابنا، يجب أن نقدس اللغة التي كتبت بها، تقديساً لا حد له». [موريس جوزيف، يهودي إنجليزي ١٩٠٧]

«اللغة العبرية؛ هي الخزائن التي أودعنا فيها كل نفيس من حياة إسرائيل الروحية»..[سمولنسكين]

«لا يصح أن تعلو الحمرة وجوهنا إذا ما طلب إلينا التعلق باللغة العبرية القديمة التي رافقتنا أثناء شرودنا من أرض إلى أرض، والتي

تغنى بها شعراؤنا، وتنبأ بها أنبياؤنا، ورفعت قلوب آبائنا مناجاتها لله، فالذين يبعدوننا عن اللغة العبرية يضمرون الشرّ لشعبنا ومجده الخالد».[سمولنسكين]

«هنا مخزون فسيح الأرجاء، مملوء كنوزاً، ومفتاحه اللغة العبرية. في عهدتنا- هل يجوز لنا أن نلقي بهذا المفتاح في محيط النسيان أكثر من ذلك؟». [هلاريتا سزولد، كاتبة أميركية، 1896](محمد جلال كشك، الغزو الفكري، ١٩٢).

ويفرض اليهود في فلسطين المحتلة على كل مهاجر يهودي جديد إليها، أن يتعلم العبرية في خلال ست شهور وإلا انقطعت عنه المعونة التي تمنح للمهاجرين، وحرم من حق التوظف والعمل في إدارات الدولة الغاصبة ومصالحها، وفضلاً عن ذلك، فقد صارت لغة التعليم في المراحل كافة هي العبرية وتستوي في ذلك الفنون الأدبية أو العلوم التطبيقية : الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء ... إلخ.

وإذا كان الاهتمام باللغة القومية على هذا النحو لدى الوثنيين والشيوعيين واليهود، فإن نفرا من بني جلدتنا يرون أن الدفاع عن اللغة العربية في بلادنا جمود ورجعية ومصالح طبقية وفتنة طائفية!

العقاد سلفي!!

فسلامة موسى مثلا يزعم أن اللغة العربية، أو تأخرنا اللغوي، من أعظم الأسباب لتأخرنا الاجتماعي! ويهاجم الذين يتمسكون بالعربية ويرى فيهم باعثين للأمس، ويتمنى لو أنهم دفنوا هذه اللغة التي يحاولون بعثها، ويؤكد «سلامة موسى»، أن الدعوة إلى لغة عصرية

هي من صميمها دعوة إلى المعيشة العصرية، ويحمل على «العقاد» الذي يؤلف عن «خالد بن الوليد» أو «حسان بن ثابت»(؟)، ويرفض دعوة الاشتراكيين إلى ما يسميه اللغة العامية، ويرى أن العقاد سلفي و ٩٩ % من كتابنا سلفيون، وهذه السلفية في رأيه نتيجة لحرمان الأمة من الرقي الصناعي، واقتصارها على الزراعة، وعرقلة كل تقدم صناعي، لأن المجتمع الصناعي كان جديرا بأن يحدث مجتمعاً مستقبلية، يكتب مؤلفوه بلغة الشعب، وتنتقل اهتماماتهم: التأليف عن قدماء العرب إلى التأليف عن مشكلاتنا العصرية في الأخلاق والتعليم والاقتصاد ومكافحة الفاقة، ثم يقول: «و إني بالطبع لا أغفل هنا ارتباط اللغة بالتقاليد والعقائد، وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوي. لقد سخر «سلامة موسي» من خريجي دار العلوم- وعدهم طبقة تدافع عن مصالحها الاقتصادية من خلال التمسك باللغة العربية (سلامة موسي، البلاغة العصرية واللغة العربية،١٥)، ولكنه لا يكتفي بذلك، بل يدعو إلى لغة حسنة (كيف؟) ويرفض فن البلاغة العربية لأنه فن عاطفي لا يخدم التفكير الحسن وبعد دعوات و مطالب عديدة تصب في هذا السياق، يصل إلى مطلبه الأخطر والأعظم، وهو: «اتخاذ الخط اللاتيني، يحمل الأمة إلى الأمام مئات السنين، ويكسبها عقلية المتمدنين، ويجعل دراسة العلوم سهلة، وهو خطوة نحو الاتحاد البشري» (السابق، ص 188).

حسابات خفية

لعل المواقف والأقوال السابقة التي عبر عنها اليابانيون والصينيون واليهود الغزاة، تمثل ردا عمليا على مقولات الداعين إلى العاميات وإهدار العربية الفصحى لحسابات لا تخفى على من يتابعون المسألة منذ قرن ونصف قرن تقريبا، ومن المؤكد الآن أن هذه الجهات التي تعتز بلغاتها صارت من أقوى الكيانات السياسة والاقتصادية في عالم اليوم ولم تحل لغاتهم دون بناء كياناتهم القوية أو الأقوى. لقد عالجتُ جوانب هذه المسألة في بعض كتبي باستفاضة وأعود اليوم للتذكير بها، لأن التخلي عن لغتنا الجميلة خطر عظيم.. إن الاحتفال بيوم اللغة العربية يعيدنا إلى التذكير بها بوصفها مكونا رئيسا من مكونات هويتنا وسجل حضارتنا وعماد مستقبلنا، وشكرا للمناسبة التي جعلت قميص رونالدو المكتوب باللغة العربية يسهم في إعادة طرح المسألة بصورة أوسع وأكثر جماهيرية.

***

3- الفجر الكاذب

ضعف الأدب وادعاء التجديد

في مرحلة الطفولة، الصف الأول الابتدائي تحديدا، حصلت من ناظر المدرسة (يُسمّى الآن مديرا) على جائزة تقديرية عبارة عن قصة للأطفال مرسومة وملونة ومزخرفة، لا اذكر اسمها ولكنها كانت تتناول مصير الكبر وعدم التسامح، حيث كان أحد كبار المجتمع يتناول طعامه في مطعم وسقطت على ملابسه أطباق الطعام من النادل أو الخادم رغما عنه، وأصرّ الكبير على معاقبته، وجاء صاحب المطعم وحاول حل المشكلة، ولكن الرجل تمادى في غطرسته فطلب منه أن يخلع ملابسه ليغسلها.. وسارت الأحداث في اتجاه التعقيد وانتهت إلى عبرتها التي تحبذ التسامح. لا أذكر التفاصيل الدقيقة بعد ما يقرب من سبعين عاما، ولكن الإشارة المفيدة في هذا الجانب هي جدية التعليم وربطه بالثواب والعقاب، وترسيخه للقيم الاجتماعية من خلال الأدب السهل البسيط الذي يخاطب عواطف الإنسان ومشاعره دون تعقيد أو إلغاز.

تعليم جاد

التعليم في ذلك الزمان مع نهاية العصر الملكي قبل 1952م، كان تعليما جادا، يقوم على وضع مناهجه وكتبه في اللغة العربية وآدابها كبار الأدباء وعلماء الأزهر الشريف، وكثير منهم كان أديبا وشاعرا

وروائيا وناقدا. كانت تتميز مناهج اللغة العربية وآدابها عادة بالثبات النسبي، وتدرس عاما وراء عام، فقد كان هناك مثلا كتاب "المنتخب من أدب العرب"، وقد أعده كبار الأدباء، يربي في التلاميذ ذائقة أدبية راقية، ويبث في أعماقهم قيما إسلامية وخلقية وإنسانية عالية، فضلا عن القيم الفنية والتقاليد الأدبية. والأهم من ذلك فقد كان حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه فريضة لازمة في المناهج المدرسية، وكان ذلك سببا في تفوق كثير من غير المسلمين في الأدب والخطابة والصياغة، وظهور مواهب أدبية واعدة في مختلف فنون الأدب والكتابة والصحافة. وأظن لو أن كاتبا روائيا مثل نجيب محفوظ تعلم في أيامنا ما كان يستطيع الظهور، ولو ظهر ما كان يمكن له أن يحقق المستوى الذي وصل إليه فنيا وتعبيريا.

القومية العربية

والمفارقة أن ازدهار ما يسمى القومية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين على حساب الانتماء الإسلامي، كان يؤذن بنهضة أقوى للغة العربية وآدابها. وللأسف صاحب هذا الازدهار هبوط ملحوظ في مستوى اللغة والأدب جميعا. كان هناك إحساس بأن كل ما يمت إلى اللغة العربية من إسلام وأبجدية عربية وأدب قديم يمثل تماهيا مع الرجعية والتخلف، وأن اعتماد اللهجات العامية والشعبية في الأدب، وتخفيف مناهج اللغة العربية في المدارس، وتهميش التربية الدينية الإسلامية وإلغاء حفظ القرآن الكريم والاهتمام باللغات الأجنبية هو الطريق إلى التقدم والنهوض. فقد

كان المهيمنون على التعليم والثقافة يبشروننا بعصر جديد وفجر جديد.. ولكنه للأسف كان فجرا كاذبا.

في ظل السيطرة الكاملة والهيمنة الشاملة على وسائط التعبير من جانب السلطة وعناصر اليسار الشيوعي وأشباهها المتحالفة معها. لقد انهارت التقاليد الفنية، واستبيحت القيم الأدبية، وصعد على سطح الحياة الثقافية أدباء ونقاد يرخصون لأصحاب المواهب الضحلة والفكر السطحي، حق الوجود الأدبي طالما كانوا منتمين إلى الحزب أو السلطة، ومع الإلحاح الدعائي في وسائط الدعاية المختلفة رأينا شعراء لا يحسنون العروض وأدباء لا يعرفون النحو.. وباسم الحداثة والتقدم رأينا كتابات لا تملك الأدوات الأولية للتعبير من إملاء ونحو وصرف وتراكيب صحيحة.

هل يكون مقبولا من شخص لا يعرف كيف ينظم بيتا شعريا أن يدّعي أنه يجدد في الشعر؟

عصر الشعارات

من الأحق بوصف المجدّد: الذي مارس الفن وأبدع فيه ثم بدا له أن يقدم تجارب جديدة، أو ذلك الذي هبط على حقل الأدب من حيث لا يعلم الناس ولا يملك تجربة حقيقية أو أدوات فنية، وادّعى أنه يجدد؟

من يتأمل الواقع الأدبي والثقافي قبل عصر الشعارات والجماهير، يلحظ جودة الأدب والفكر من ناحية المضمون والفن، ويرى أصالة المواهب الأدبية وقدرتها على التأثير، وسيرها في إطار التجديد

الحقيقي الذي يفرضه الواقع والتفاعل الثقافي مع الأخرين، وازدهار اللغة في سياق متناغم مع تطور الثقافة والفكر.

مستقبل الأدب

لم يكن غريبا في ذلك الحين أن يتحدث كاتب بحجم أحمد أمين في الجزء السادس من فيض الخاطر عن مستقبل الأدب العربي، فيشير إلى أدب العصر لدى الأخرين وما وصلوا إليه من تفوق ويطلب المقارنة، ويطرح أسئلته عن المستقيل، وكيف ينبغي أن يكون، وأي طريق ينبغي أن يسلك؟ وفي تواضع شديد يعلن عسر الإجابة التي يجب أن تتعاون في الوصول إليها أقلام مفكري العرب وأدبائهم حتى يصلوا إلى منهج واضح ينفع الأدب في اتجاهه. ومع ذلك يجتهد في الإجابة ويرى أن للأدب منزعين ومنبعين: أدب ينبع من النزعة الفردية، والأدب العربي فيها غني قوي، وأدب ينبع من النزعة الاجتماعية، والأدب العربي فيها فقير ضعيف؛ ومستقبل الأمة العربية وحاضرها في أشد الاحتياج إلى الأدب الاجتماعي ينهض بها، الذي يفسره بأن ينظر الأدباء إلى مجتمعهم الحاضر يشتقون منه رواياتهم وأقاصيصهم، وشعرهم، ومقالاتهم؛ ويصوغون منه فنونهم الأدبية. فمجتمعاتنا مملوءة بالشرور الاجتماعية وأكثر الناس يعيشون عيشة تافهة سخيفة لا تجد ضرورات العيش، وليس الناس هم المسئولين عن سوء وضعهم وسوء حياتهم بقدر ما هو مسئول عنها أولو أمرهم، والقابضون على زمام التصرف في شئونهم، وهناك مئات ومئات من المآسي الإنسانية تنتظر من الأدب أن

يعالجها ويشرحها ويُحللها، ولا يقتصر على إجادة وصف ما هو كائن بل يرسم ما ينبغي أن يكون في روايته التي يضعها، وشعره الذي يصوغه، وقَصصه الذي يحكيه، ومقالاته الفنية التي يحررها، ولا يكون ذلك حتى يخرج الأديب عن عزلته وينغمس في الحياة الواقعية ويكتوي بنارها. وعلى الجملة يصبح عندنا أدباء هم قادة الرأي العام يبصِّرونه بموقفه ويُطلعونه على مزاياه وعيوبه، ويحركونه لغرض نبيل يتسامى إليه.

وهذا النوع من الأدب كما يرى أحمد أمين يجب أن يكون أسلوبه سهلًا واضحًا جميلًا جهد الطاقة؛ لأنه لا يؤدي رسالته حتى يصل إلى آذان أكبر عدد ممكن في الهيئة الاجتماعية، ثم يتمنى أن يكون لنا في الأدب العربي أمثال برنارد شو في الأدب الإنجليزي وأناتول فرانس في الأدب الفرنسي وتولستوي في الأدب الروسي، وأمثالهم ممن وقفوا أدبهم على خدمة المجتمع وإشعاره بعيوبه واستثارته إلى التسامي.

للأسف لم يتحقق طموح أحمد أمين في زمن وزارات الثقافة والإعلام. تراجع الأدب، وصار إلا قليلا عبئا على الحياة والذوق العام والتاريخ.

استباحة التقاليد

حين هيمن الماركسيون على الحياة الأدبية ووسائط التعبير، أصموا آذاننا بالحديث عن الالتزام وأدب العمال والفلاحين والكادحين، ولكنهم لم يقدموا أدبا ذا قيمة، أو فنا رفيعا، فقد استباحوا التقاليد الأدبية لحساب نظريتهم المادية، وأهدروا اللغة، وأزروا

بالأساليب الفنية الرفيعة، لحساب مخاطبة الأميين والجماهير العريضة كما يدعون، وبعد فشلهم الذريع في تقديم ما يغزو الوجدان ويحرك القلوب، ويدفع الهمم إلى العمل والإتقان، دخلوا وأجيالهم التالية إلى مراحل السريالية، والانكفاء على ذواتهم، ويا لسوء ما اخرجوا لنا من بؤس كتابي.. تجديف في حق الذات الإلهية، وتعبير عن جنس فج، وإباحية مقززة، وراحوا يدعون الشبان إلى التركيز على هذه الموضوعات تحت دعوى كسر التابوهات وتحطيمها بوصف ذلك حرية تعبير. إن التابوهات الثلاثة التي يطرحونها، ويرون ضرورة تحديها هي :الدين والجنس والسياسة. نلاحظ أن التابو الثالث وهو السياسية لا يقتربون منه أبدا، وإن اقتربوا فيوظفّونه للهجوم على الإسلام، ووصمه بالإرهاب، وتشويه قيمه ومعطياته، وتقديم المسلم بصورة مشوهة بل متوحشة بوصفه إرهابيا دمويا معاديا للإنسانية فاقدا للرحمة، مزدوج الشخصية، له صورة ظاهرة وأخرى باطنة، وكل ذلك في إطار أسلوبي ركيك ، يفتقد إلى الجمال، والسلامة اللغوية. وفي الوقت نفسه يقدمون غير المسلم في صورة وردية رقيقة تفيض إنسانية وعذوبة ولو كان الواقع غير ذلك!

المثقف الاستعمالي

المفارقة أن عرّابي الأدب في زمننا- وهم يرتدون ثياب المثقف الاستعمالي- لا يتورعون عن التدليس والكذب، فيؤكدون على تابو الدين، ويصوّرون الدين- ويقصدون الإسلام تحديدا- عدوّا

للإنسانية، ويجعلون المشكلة الأولى التي تواجه العرب والمسلمين هي الاستبداد الديني والإرهاب الديني! ويرتبون على ذلك فقدان العرب والمسلمين فضيلة استخدام العقل في مواجهة الواقع والمستقبل! وبالتأكيد فهذا التدليس أو ذلك الكذب يتجاهل الأنواع الحقيقية السائدة من الاستبداد التي يعانيها العرب والمسلمون فلم يكن الإسلام صانعا في يوم ما استبدادا يمنع المسلمين من استخدام العقل والتفكير لتجاوز مشكلاتهم ومتاعبهم وصناعة مستقبلهم وتحقيق حلمهم. ثم إن الإسلام لا يعرف الكهنوت الذي يؤسس للاستبداد الديني بحكم أنه يملك صكوك الغفران والحرمان، وبالتأكيد فإن المثقف الاستعمالي يعلم جيدا طبيعة الاستبداد الذي لا يسميه ويدمر خلايا المجتمع والاقتصاد والعلم والفكر والثقافة والمستقبل! المثقف الاستعمالي لا يشير ابدا إلى الإرهاب الصهيوني ولا الاستعماري!

التابوهات الثلاثة

لا ريب أن هناك من الشباب من يجد في فكرة كسر التابوهات حافزا يناغي بعض نزعاته الفكرية المتطرفة وشهواته الجنسية الصاخبة وشطحاته القلقة اليائسة، وخاصة أن تابو الدين والجنس بلا حراس لن يؤاخذه أحد لو كسرهما. ثم إن تابو السياسة حين يتم كسره لحساب الاستبداد وتجريم الإسلام بوصفه معاديا للطغيان والظلم سيعود على صاحبه بمنافع دنيوية لا تخفى. ترى لو أن أحمد أمين استيقظ الآن ورأى أن ما كتبه منذ سبعين أو

ثمانين سنة لم يجد صدى لدى الأجيال المعاصرة التي أصرت على النزعة الفردية، ولم تلتفت إلى المجتمع وقضاياه- ماذا كان سيقول؟ أتصوره يأسى على ما وصلت إليه حال الأدب العربي لدى النخب التي تتصدر المشهد الأدبي الآن حين تخلت عن هوية الأدب العربي الإسلامية الإنسانية، ودارت مع منزع الذات التي لا تبصر ما حولها، وتنكرت لهموم الأمة وآمالها. وتجمدت في إطار شخصي لا يرى غير نفسه وذاته ففقدت الرؤية الإنسانية الرحبة التي تبصر المجتمع بآفاقه المترامية ومستقبله المأمول. في الوقت نفسه يتم تهميش أصحاب المواهب الحقيقية والتعتيم عليها وحرمانها من الوجود الأدبي والنقدي، فضلا عن الإعلامي كي تموت في مهدها، فلا يبقى على الساحة إلا هؤلاء السطحيون المبتذلون الذين يفتقدون المشاركة الإنسانية للمجتمع في همومه وطموحه.

الإرادة الغاشمة

إن عصرنا الذي يسمى عصر الاتصالات والعالم الذي تحول إلى قرية صغيرة، يفرض بالضرورة أن يعيشه مجتمعنا العربي الإسلامي، وأن يكون الدليل في هذا العيش هو الأديب الذي يعالج قضايا الناس ويفتح لهم الطريق نحو المستقبل.

من المؤسف بل من المؤلم أن نخدع الشعوب العربية بأدب لا يحمل قيما حقيقية ولا ينقب عن المتاعب التي تعانيها الأمة، ولا يطرح- بالفن- وسائل المقاومة والتجاوز للصعاب والمتاعب.

إن الإرادة الغاشمة التي تهيمن على المشهد الثقافي بعامة أسهمت في إضعاف اللغة والتعليم والإعلام، فعاد الأدب يتحسس طريقه كأنه في أواخر العصر العثماني وقبيل النهضة الحديثة. بعد أن طوح بالمحتوى الأدبي في حفرة عميقة عجزا وتقصيرا وجبنا عن مواجهة الواقع الاجتماعي العام.

لم تكن اللغة شيئا زائدا عن الحاجة ،لكنها جزء أساسي من التكوين الحضاري للأمة، بل هي المجال الحيوي للتعبير عن الهوية التي تميز الأمة وتحمل قسماتها وتحتضن تراثها وأمانيها ومستقبلها. وكأن المأمول في عصر الاتصالات والفضاء كما يقال أن تتقدم العناصر الحيوية في بناء الغد، ولكنها للأسف باتت مثل الغريب الذي لا يرحب به أحد. صحيح أن هناك احتفالات عامة تقام كل عام في اليوم العالمي للغة العربية (12/18/...)، ولكن واقع الاهتمام بها على أرض الواقع: التعليم، الإعلام، الصحافة ، الأدب، الثقافة، وسائل التواصل الاجتماعي، الخطاب العام، الخطاب الرسمي،... لا يبشر بخير. ماذا يعني قول أحد المفروضين على الأدب بقوة الدعاية والانتماء إلى الإرادة الغشوم إن "نجيب محفوظ" أديب كلاسيكي لأنه كان يحافظ على الفصحى في كتاباته؟

التعليم والإعلام

ومثل اللغة ينهار التعليم في النهوض بها وبأهدافه القومية والحضارية، ويتحول إلى مجرد امتحانات في التعليم العام والجامعة لإحراز شهادة أو صك يتم التعامل به للحصول على وظيفة أو استخدامه في الوجاهة الاجتماعية؟

أما الإعلام فحدث ولا حرج، لغة مبتذلة، مضمون سطحي، أداء سقيم، حتى فيما يسمى البرامج الثقافية قد يكون هناك استثناء، ولكنه استثناء يثبت القاعدة، ويؤكد ضعف الأدب، وخواء الأدباء.

إن الذين بشرونا بأدب تقدمي يتجاوز حدود الأمة إلى العالم، لم يكونوا صادقين، لأن فجرهم كاذب!

***

4- الفجر الصادق..
تحديات النهضة الأدبية المأمولة

في ظل المواضعات الراهنة للمشهد الثقافي يصعب أن تكون هناك حركة إيجابية نحو مستقبل أدبي مأمول، هناك انحطاط في التعبير، وانهيار في التعليم، وانحراف في الإعلام. يمكن مع الإصلاح والتطوير والإخلاص أن تتحسن الأمور، ليس في الجانب الأدبي والثقافي فحسب بل في دائرة أوسع تشمل المجتمع ومساراته العامة: اقتصاديا، وإداريا، واجتماعيا وتقنيا، وسلوكيا، وسياسيا، وغير ذلك. إصلاح الواقع اللغوي والتعليمي والإعلامي يصب في صالح الأنشطة الأخرى، لأنه يبني أو يسهم في بناء فرد مؤهل للعمل والاستجابة الابتكار.

الهواتف الذكية

لقد تأثر الواقع اللغوي بالتطور التقني الذي جعل الحاسوب جزءا من حياة الناس اليومية، سواء في صورته المنزلية، أو صورته الأكثر تطورا من خلال ما يسمى الهواتف الذكية التي يحملها الأفراد، ويتحركون بها في أماكن تنقلاتهم وعملهم وراحتهم ونومهم. صارت التطبيقات التقنية مرتبطة باللغة، هناك هيمنة للغة الإنجليزية بلا ريب، مع حضور متفاوت للغات الأخرى. لغتنا العربية حاضرة نكتب بها ونقرأ، ولكن هيمنة الإنجليزية في التطبيقات أتاحت شيوع كثير

من مفرداتها في الفضاء الإلكتروني، وعلى ألسنة مستخدمي الأجهزة، مع أن لها مقابلا عربيا سهلا يمكن استخدامه دون تعقيد. خذ مثلا بعض المفردات التي تحضرني: فيس بوك. إنستجرام. ستوري. دلّت. بست. كوبي. كت.. وهناك بعض ما يمكن عده ضمن ما عرف قديما في القرن الماضي بالفرانكو آراب، واستبدال بعض الحروف بالأرقام، وغير ذلك من تأثيرات، ليست في صالح اللغة. ولكن الأخطر منها ما يمكن تسميته بشيوع الكتابة العامية، أو بالأدق صياغة أشباه الأميين للكلمات الفصيحة، مثل: أنتي بدلا من أنتِ، لاكن بدلا من لكن، قلتي بدلا من قلت.. إثبات النون في المضارع المنصوب والمجزوم من الأفعال الخمسة لن يكتبون لم يكتبون، أو حذف النون من هذه الأفعال دون أن يدخل عليها ناصب أو جازم، أو نحو ذلك.

حيوية النص

والأسوأ من ذلك كله الترويج لإهمال اللغة وخاصة النحو. بدعوى حيوية النص، والوصول إلى القارئ. ويستعين بعضهم بآراء بعض الكتاب العالميين خارج اللغة العربية للترويج لدعواه اعتقادا منه أن اللغات الأخرى لها خصائص اللغة العربية والتعبير العربي، مع أن الأمر مختلف جدا بين لغة ولغة في الطريقة والأسلوب والقواعد النحوية. يستشهد بعضهم مثلا بما يقوله الكاتب الروائي البيروني (ماريو بارجاس يوسا) الحاصل على نوبل عام ٢٠١٠، في كتابه «رسائل إلى روائي شاب»:

«ليس مهماً فى شيء أن يكون الأسلوب سليماً أو غير سليم؛ وإنما المهم هو أن يكون فعالاً ومناسباً لمهمته، وهى نفخ وهم حياة- بحقيقة- في القصص التي يرويها، هناك كتّاب كتبوا بأسلوب فائق السلامة، وفق القواعد النحوية والأسلوبية السائدة في عصرهم، مثلما هو ثربانتس، وستاندال، وديكنز، وجارسيا ماركيز.. وهناك آخرون، لا يقلون عنهم أهمية، خرقوا تلك القواعد، مقترفين كل أنواع العثرات النحوية، وكان أسلوبهم يغص بالأخطاء، من وجهة النظر الأكاديمية. ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا روائيين جيدين؟».

لا أظن إذا جردنا نجيب محفوظ مثلا من أسلوبه ولغته ونحوه وصرفه أن نجد فيه فنا ذا قيمة. إن اللغة والأسلوب والقواعد أمر لا بد منه، ولا أظن أن ثربانتس وستاندال وديكنز وجارسيا ماركيز بدونها ستكون لهم قيمة أدبية أو فنية مع أن لغتهم قد تسمح ببعض التجاوز. إن اللغة العربية دقيقة، ولا بد للأديب العربي أن ينطلق منها ليكون مفهوما وذا قيمة، فضلا عن امتلاكه الموهبة والوعي والتجربة والثقافة.

تجربة اليابان

تجدر الإشارة إلى أن اليابان بعد هزيمتها واستسلامها في الحرب العالمية الثانية، ظهر فيها اتجاه إلى التخفيف من قواعد اللغة والمحفوظ منها، وبعد مداولات طويلة انتهي القوم إلى التمسك بالقواعد القديمة، وزيادة المحفوظ منها في مراحل التعليم المختلفة، دفاعا عن الهوية اليابانية، وسعيا لبناء نظام تعليمي وثقافي متميز،

وهو ما انعكس على التطور الهائل الذي شهدته اليابان في النصف الثاني من القرن العشرين حتى الآن، وصار الناس يرونه منعكسا في صناعتهم وإنتاجهم المتنوع وتفوقهم الاقتصادي والعلمي والإداري. والأمر نفسه بالنسبة لكوريا الجنوبية.

اللغة ليست مجرد أداة ناقلة للفكر والثقافة والمعرفة. إنها تعبير عن هوية وتاريخ وحاضر ومستقبل، وهوما أدركه اليهود وهم يحتلون فلسطين ويقيمون على أرضها وطنا مغايرا، فقد بعثوا لغتهم القديمة التي كانت حبيسة جدران معابدهم وكهنتهم لتكون لغة الوطن المغتصب اليومية، ولغة الصحافة والإعلام والتعليم والسياسة والمعرفة والبحث العلمي والمحافل الدولية.. فأبدعوا بها بحثا وعلما واكتشافا، ونال من خلالها عديد من علمائهم أرفع الجوائز العالمية، وفي مقدمتها جائزة "نوبل".

توحيد التعليم

وهذا يقودنا إلى الواقع التعليمي في بلادنا العربية ومقارنته بالواقع التعليمي في دولة الاحتلال الصهيوني، فبينما يتوحد التعليم ونظامه على أرض فلسطين السليبة طريقة ومنهجا وغاية وهدفا، نجده يتشتت ويتفرق ويتعدد على الأرض العربية. لم يعد التعليم في بلادنا العربية موحدا. في بعض البلدان العربية تجد مدارس تعتمد أنظمة أجنبية متباينة اللغات والثقافة، وتتصادم مع اللغة الأم وثقافتها وحضارتها وغايتها، ومع الأكثرية التي تتلقى تعليما رسميا مختلفا ومتخلفا، وهو ما يسهم في نشوء أجيال غير منسجمة وطنيا

وحضاريا، ويورث واقعا عنصريا تصنعه اللغة التي يتكلم بها كل فريق، وينظر بها إلى غيره، وإلى العالم.

اجتثاث الهوية

وبينما يسعى اليهود إلى التركيز على صناعة هويّة يهودية في مجال اللغة والتعليم الخاص بأجيالهم الجديدة، يحدث العكس في بلادنا العربية الإسلامية، بحيث يمكن القول إن هناك اجتثاثا لا يتوقف للهوية الإسلامية وثوابتها من خلال تضخيم النزعات الشعوبية والإقليمية والطائفية والعرقية، وللأسف فإن من يقوم بهذا الاجتثاث أو يشير به دول معادية للإسلام والمسلمين لا تخافت برغبتها الشيطانية في إخضاعهم واستسلامهم تحت مسمى تنقية المناهج التعليمية العربية من المواد المحرضة على الإرهاب!

هم يعلمون جيدا أن الإسلام لا يدعو إلى الإرهاب بمفهومهم الشيطاني، ولكنهم متأكدون أن الجهاد قيمة إسلامية عظمى في المقاومة للاحتلال والاغتصاب والنهب وتدمير الشعوب تحت ذرائع استعمارية مختلفة تشبه قصة الذئب الذي تحرش بالعنز على شاطئ المياه بحجة أنه عكّر عليه الماء. لقد صار الإسلام في المفهوم الاستعماري أو الاستدماري مرادفا للإرهاب، أو هو الاسم الكودي للإسلام. لقد سارعت دول عربية بتغيير مناهجها وحذفت ما يتعلق بشخصية الإسلام المستقلة، وخاصة الجهاد، خوفا ورعبا من دول الغرب الاستعمارية، وارتفعت أصوات عربية تنادي بحذف غزوات الرسول- صلى الله عليه وسلم- لأنها تشجع على الإرهاب بالمفهوم

الاستدماري، وأضحت كلمة الجهاد تثير الذعر لدى من يقومون على شئون التعليم والإعلام في العالم العربي. وأذكر إن إحدى نوافذ النشر ألحّت عليّ في الكتابة إليها، فاستجبتُ وكتبت بعض مقالات نشرتها، وعندما بعثت مقالا ورد فيه ذكر للجهاد بمفهومه الإسلامي، لم ينشر، واستفسرت عن السبب فلم أتلق ردا! إلى هذا الحد وصل الذعر من كلمة الجهاد، فما بالك بالقضايا الأخرى؟

مادة الأخلاق

لقد أُلغيت التربية الدينية الإسلامية عمليا من مناهج بعض الدول العربية، ووصل الهوان ببعضهم إلى اختراع مادة (منزوعة الدسم) تسمى "الأخلاق" بديلا عن التربية الإسلامية مراعاة لضغط الأقليات الطائفية، وكأن الإسلام الذي احتوى الطوائف والأعراق على مدى أربعة عشر قرنا، لا يجوز أن يعلم أبناءه مضمون قيمه وفحواها.

المفارقة أن بعض العرب لا يجدون غضاضة في تدريس المواد الطائفية بحجة الوحدة الوطنية، وفي غمرة "تسونامي" الاستسلام العربي للعدو الصهيوني المسمى بالتطبيع واتفاقيات السلام، نقلت وكالات الأنباء أن دولة عربية أطلقت عملية إدراج تاريخ الجالية اليهودية وثقافتها بالمناهج الدراسية في مدارسها وجامعاتها. وأفادت وزارة التربية المعنية بأن أولى الحصص الدراسية باللغة العربية ستعطى اعتبارا من الفصل الدراسي المقبل في السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية حيث يبلغ عمر التلاميذ حوالى 11 عاما. ومع أن اليهود في هذه الدولة العربية لا يتجاوز عددهم ثلاثة آلاف، فقد

قال المسئولون إن إدراج الموروث اليهودي في المنهج التربوي للبلاد يدخل في إطار برنامج واسع لإصلاح المناهج الدراسية! كما سرت شائعات حول إدراج محرقة اليهود في البرامج التعليمية في المدرسة على أساس أهمية التعليم في مكافحة العنصرية ومعاداة السامية(!!).

استئصال الإسلام

والسؤال هل مثل هذا التعليم في بلادنا العربية الذي يستأصل التربية الدينية الإسلامية ويهمش اللغة العربية يستطيع أن يخرّج لنا كتابا وأدباء يحملون التصور الإسلامي، ويملكون ناصية اللغة العربية ويصنعون فجرا صادقا للأدب العربي المعاصر؟ الإجابة معروفة!

في موضوع بعنوان "أي مستقبل للأدب ؟؟" ترجمه وقدم له : عبده حقي، نظمت مجلة(لاكروا) مناظرة فكرية حول مستقبل الأدب (La litterature) استضافت لها كل من المفكرين المعروفين (تزيفتان تودوروف) و(فرانسوا بيغودو) كانت الغاية المحورية منها الكشف عما يمور به الواقع الأدبي من تحولات فكرية ومعيقات تعليمية جعلت نسبة مخيفة من التلاميذ والطلبة يعزفون عن الانخراط في مسالك الأدب درسا وإبداعا ومواكبة بوصفه نشاطا فكريا بات يتجاوزه عصر الرقميات بما أفرزه هذا العصر من إمكانيات هائلة للإبداع على مختلف مستوياته السمعية / البصرية على الخصوص وهو ما أثر على الصورة في الوطن العربي وأضفى عليها ألوانا قاتمة

حول مصير الإنتاج الأدبي وبالتالي الإرث الأدبي ، فهل بات الخوف على ذاكرتنا الأدبية العربية خوفا مشروعا مثلما هو الواقع اليوم في فرنسا قلعة الفكر والثقافة والأدب والفنون !!؟ ثم ما هي الإجراءات الفكرية والمناهج التعليمية الناجعة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه في الجسم الثقافي الغربي والعربي من داء فقر الأدب القادم في المستقبل القريب لامحالة ...؟

التجارب الإنسانية

إن الحوار بين تودروف وبيغودو حوار شائق ومهم ومفيد، لأن الرجلين يختلفان أو يتفقان ولكنهما يحلمان بأدب مزدهر يناغي الوجود الإنساني، ويحقق المتعة للقراء وخاصة للطلبة في مجال التعليم، إنهما يتحاوران حول العدمية والشكلانية والفردانية، والأدب الذي يعبر عن الواقع بأبعاده الشاسعة التي تحمل عديدا من التجارب الإنسانية، ليس تجربة رتيبة هزيلة يتناولها معظم من يكتبون.. لا أستطيع أن ألخص المحاورة وما احتوته من قضايا، ولكنها تشير إلى اهتمام كبير من ناقدين على مستوى عال يعبران عن خوفهما على مستقبل الأدب في فرنسا والغرب، في حين يخرج علينا من يتصدرون المشهد الثقافي في بلادنا شبه الأمية بمقولة رديئة تزعم أن كل شيء جميل ورائع في عالم الأدب، ويبشروننا بفجر صادق للأدب لا يأتي أبدا!

العداء الصريح

ويقوم الإعلام أو الدعاية بمعنى أدق في بلادنا العربية، بدور أكثر تأثيرا في هدم الأسس الذاتية التي يقوم عليها البناء الفكري والثقافي والأدبي والحضاري عموما. إن الدعاية لا تعنى بالمنهج أو الأفكار الحقيقية لصياغة المستقبل. يعنيها أن تروج لمن يدفع الثمن لسطحيته وخوائه وموهبته المحدودة، فضلا عن عدائه الصريح أو المضمر للثقافة الإسلامية، وتملقه للثقافات الأخرى، وبعضها معاد شديد العداء للثقافة القومية.

إن ما تعرضه أجهزة الدعاية من آداب وفنون يصب في تشويه الثقافة الإسلامية، والسخرية منها ومن لغتها العربية، ويعالجها بمنظار عنصري، حيث تبدو اللغات الأجنبية دليلا على التحضر والرقي، أما العربية فتشير إلى التخلف والجلافة، وتأمل الأفلام والدراما التي تعرض على مدار الساعة، تجد صورة المثقف الرسالي ولغته العربية في شكل منفّر متقعر سخيف، بينما المثقف الاستعمالي مقلد الغرب وثقافته ولغته في صورة نبيلة ومضيئة شائقة!

زحف الأخطاء

صارت اللغة في الصحافة والدعاية مبتذلة، تغص بالأخطاء الإملائية والنحوية والتركيبية، بل إن صحفا عريقة كانت حريصة على اللغة، زحفت إليها الأخطاء متجاوزة المتن إلى العناوين الرئيسة، وصار المصححون في الصحف والدوريات أكثر استجابة للأخطاء الشائعة دون مراجعة أو بحث عن الصواب. ومن أطرف ما نسمع أن طلاب الثانوية العامة يبحثون عن مجموع الدرجات في التعبير والقصة والنصوص حيث لا تحتسب أخطاء النحو والصرف، وفي أقسام اللغة العربية تتدني تقديرات النحو والصرف وعلم اللغة، لأن الطالب يركز على المواد التي يستطيع أن يسكب فيها كلاما إنشائيا قد يرفع تقديره، دون أن يعنّي نفسه في مسائل تعتمد على التفكير والقواعد التي لا يعبأ بها. هل هي تجليات عصر الفهلوة؟

كم أتمنى أن تعود مناهج التربية الإسلامية واللغة العربية التي كانت قبل انقلاب 1952م، وكم أتمنى أن تعطى التربية الإسلامية مكانتها، وأن تكون مادة تضاف إلى مجموع الدرجات في مراحل التعليم الأساسي، وأن تتبوأ اللغة العربية وجودها في التخاطب واللافتات، وأن تتوقف السينما والدراما عن النيل من الإسلام ولغة القرآن الشريفة، ثم أتمنى الكفاح من أجل حوسبة اللغة، بوصف الحاسوب أداة المستقبل والتقنية الأساسية التي يتعامل معها المتعلمون الناطقون بالعربية في مشارق الأرض ومغاربها.

ننتظر الفجر الصادق لا الفجر الكاذب!

5- صناعة المثقف الاستعمالي!

ارتبط تصنيع المثقف الاستعمالي بالتغريب، ومن قبل بالطامعين والمعتدين الغزاة الذين يحتلون بلاد المسلمين ويسيطرون على مقدراتها، وينهبون ثرواتها ،ويفيدون من مواقعها الاستراتيجية.
المثقف الاستعمالي مقابل المثقف العضوي كما يسميه الكاتب الشيوعي الإيطالي أنطونيو جرامشي (1891-1937م) مؤسس فكرة "الهيمنة على الثقافة كوسيلة للإبقاء على الحكم في مجتمع رأسمالي"، ومفهوم "المثقف العضوي" عنده هو الشخص الذي يستطيع أن يُدرك بمهارة تنم عن وعي ثقافي مائز بحاجة طبقته وتصوراتها التي ينتمي إليها، ويعني جرامشي هنا مقدار ما يمتلكه هذا المثقف من وعي خلَاق يستطيع من خلاله التعبير عن أيديولوجيا الجماعة التي هو جزء فاعل وواع منها. إنه المثقف الوفي لقومه ولطموحاتهم ورغباتهم في الحرية والاستقلال والأمل.

المثقف الرسالي

ويمكننا القول إن المثقف العضوي عند جرامشي يقابله المثقف الرسالي في التصور الإسلامي حيث يصدع بالحق في مواجهة الباطل، ولا يخون أمته ولا يضللها ولا يدلس عليها ،ولا يساير الباطل ولا يبيع نفسه تحت أي ظرف، أو مقابل دراهم معدودة أيا كانت صورة

هذه الدراهم وطبيعتها. إنه منتم لله ورسوله- صلى الله عليه وسلم- مهما كان الثمن الفادح الذي سيدفعه.

أما المثقف الاستعمالي، فهو الذي تحركه مصالحه الشخصية ويستجيب للانحراف عن واجبه الديني والخلقي والإنساني، وهو في كل الأحوال استئصالي وتضليلي وتدليسي وكذاب ومنافق ويتصور الدنيا لا تمضي إلا وفق هذا التصور السلبي. ويوجد هذا المثقف في الصحافة والإعلام والتعليم والدعوة والجامعة والفكر والأدب ومراكز البحوث ونحوها.. يبحث عما يحقق له الشهرة والثروة والسطوة والقرب من مراكز النفوذ والقوة والجاه.

الدفع للزمار

قوى الطمع والاستبداد والعدوان اكتشفت منذ وقت مبكر أهمية وجود المثقف الاستعمالي في تحقيق أهدافها وغاياتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإن لم تفصح عن ذلك دائما. وقبل سنوات عديدة أصدرت السيدة ف. س. سوندرز، وكانت تعمل في المخابرات المركزية الأميركية كتابا يحمل عنوان "الحرب الباردة الثقافية- من الذي دفع للزمار؟" (صدرت ترجمته عن المركز القومي للترجمة، ط4، القاهرة، 2009م)، تناولت فيه بالوثائق والأدلة دور المخابرات في تجنيد عدد من المثقفين كتابا وشعراء وفنانين في الغرب والعالم العربي، وتمويل مجلات أدبية وأنشطة ثقافية تروج لأفكارها في الحرب الباردة بين العملاقين: السوفيات والأميركان، وكان ميدانها: الصحف والمجلات والإذاعات والمؤتمرات ومعارض الفن التشكيلي

والمهرجانات الفنية والمنح والجوائز ..الخ ، حيث تكونت شبكة محكمة من البشر الذين يعملون بالتوازي مع المخابرات المركزية الأميركية "CIA" لزرع فكرة جديدة مؤداها أن العالم في حاجة إلى عصر تنوير جديد، وأن ذلك كله سيكون اسمه "القرن الأمريكي". وقادت هذه الشبكة "منظمة الحرية الثقافية - Congress for Cultural Freedom" (تأمل دلالة الاسم)، وكانت بمثابة وزارة غير رسمية للثقافة الأمريكية ، أو لتكون "الزمار" الذي تدفع له CIA ثمن ما تطلبه من ألحان. وعرفت المنطقة العربية مجلات ومثقفين عملوا تحت لواء هذه المنظمة، عديدا من المجلات أشهرها مجلتا "حوار" و"شعر"، وعديدا من المثقفين، وكان معظمهم من اليساريين والطائفيين وخصوم الإسلام.

مسيلمة .. خلية نائمة

وفي عام ٢٠٠٦، صدرت ترجمة كتاب «المخابرات تحكم العالم»، تأليف رجل المخابرات السابق في الـ cia إنجيلو كود نيلا، والأستاذ الجامعي فيما بعد، ويتحدث فيه عن موضوع طريف ضمن ما يسميه العناصر النائمة أو الميتة، التي تجندها أجهزة المخابرات في بلد ما أو منطقة ما، وفى لحظة يحددها الجهاز تطلب الأجهزة من هذه العناصر أن تتحرك وتقوم بالمطلوب تخريبا أو إحداث فوضى وقلاقل، كل في دائرته، وقد ينجح أو يفشل. وقدم الكاتب «مسيلمة الكذاب» نموذجا للعناصر النائمة، فقد جندته مخابرات الإمبراطورية الرومانية في قلب الجزيرة العربية ودفعته لإضعاف

المسلمين وإفساد وحدة الجزيرة العربية تحت راية الإسلام التي حققها النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولولا قيام أبي بكر رضي الله عنه بمحاربته لنجح مسيلمة في تغيير مسيرة الإسلام والمسلمين! ويشير مؤلف الكتاب إلى وثائق ومصادر رومانية اعتمد عليها في تناوله للموضوع الذي يبدو طريفا بالنسبة لنا، ولكنه يؤكد أنه شائع بين الباحثين في مجال الاستخبارات الغربية. هل خطر على بال المسلمين قديما وحديثا أن الرومان يمكن أن يكون لهم دور في صناعة مسيلمة الكذاب الذي عرف في التاريخ الإسلامي بالمتنبئ أو مدعي النبوة؟

رجع الصدى!

في العصر الحديث فإن الغرب لم يخافت بصناعة المثقف الاستعمالي ،مثلما يصنع المسئول الاستعمالي في البلاد المطموع في الاستيلاء عليها، أو نهبها أو السيطرة على مقدراتها. وأنقل بعض ما كتبه الأستاذ محمود صقر في مقاله (موقع المجتمع، 2020/7/1م)، حول الموضوع، حيث كتب الفيلسوف الفرنسي الشهير "جان بول سارتر"، في مقدمة كتاب (معذبو الأرض) للمناضل الفرنسي "فرانس فانون" عن صناعة المثقفين الببغاوات الموالين لهم:

"كنا نستجلب بعض أبناء المستعمرات، ونعلمهم لغتنا وعاداتنا، وندبر لبعضهم زيجات أوروبية، ثم نرسلهم إلى بلادهم؛ فنسمع من خلالهم رجع أصواتنا؛ فهؤلاء المثقفون الذين صنعناهم لا يملكون سوى ما نلقيه في أفواههم".

ويستكمل الروائي "إبراهيم أصلان" المشهد الذي رسمه سارتر فيقول بعفوية في كتابه "خلوة الغلبان" بأنه تمت دعوته إلى فرنسا عام 1994 مع مجموعة من (المثقفين) المصريين، ثم يقول:
"جلسنا وأمامنا مائدة ازدحمت بالمأكولات الخفيفة الملونة وزجاجات النبيذ الداكنة، ووراءها مجموعة من الفتيات الجميلات.. وكان يجاورني رجل يملأ لي الكوب كلما فرغ وعرَّفني بأنه يهودي.. همست في أذن جاري بأن هذا الرجل يهودي، فأجاب: وإيه يعني؟ كل الناس اللي معانا هنا يهود".

يختارونهم من اليسار

واضح طبيعة الصناعة الغربية والصهيونية لمثقفينا العرب، كما هو واضح نوعية المثقفين الذين يختارونهم من اليسار الذين هم في الأصل صناعة يهودية من خلال أحزابهم التي أنشأها اليهودي هنري كوريل في الأربعينيات، وتدين له وللكيان الصهيوني بولاء لا يخفى! إن هؤلاء المثقفين الاستعماليين قد يختلفون في أشياء كثيرة، ولكنهم يتفقون على شيء واحد في مجال النظرة إلى الأديان، هو كراهية الإسلام، ومحاربته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وهوما يتجلى في سلوكهم الثقافي عبر الأجهزة التي يعملون من خلالها أو وسائل التعبير التي يهيمنون عليها، واستئصالهم لكل صوت أو قلم يتعاطف مع الدين الحنيف، بل إن دفاعهم عن اليهودية والنصرانية يمثل ذروة نضالهم الثوري والتنويري، أما يتعرض له الإسلام من تشويه وإهانة فيعني لديهم حرية رأي وحق تعبير .

أمر آخر يقدم ملمحا من ملامح التصنيع للمثقف الاستعمالي، وهو تكريمه بأعلى الأوسمة في الغرب. وتعد فرنسا طليعة القوم في هذا المجال لحرصها على الهيمنة على العقل العربي واستلابه، وتحويل ولائه إلى الثقافة الفرنسية في جانبها العنصري الاستغلالي المعادي للإسلام والمسلمين. إن عشرات المثقفين الذين حصلوا على هذه الأوسمة لا يتعاطفون مع الإسلام وقيمه ومنهجه وتشريعاته، بل إن كثيرا منهم لا يخافت في الهجوم على الدين الحنيف والتشكيك في صلاحيته لكل زمان ومكان، والترويج للأفكار الغربية والصهيونية المسمومة تجاهه.

تمجيد الاستعمار

لقد أسفرت عملية تصنيع المثقف الاستعمالي عن سقوط العديد من مثقفي الغرب، وعدد غير قليل من كبار مثقفينا العرب، وكثير من صغارهم في أخطاء قاتلة بالنسبة لإنسانيتهم فضلا عن الدين الإسلامي الحنيف، حين مجدوا الاستعمار وأشادوا به، وأظهروه مبشرا بالكرامة والحرية والديمقراطية والتقدم والتنوير في بلادنا المتخلفة.

خذ مثلا فيكتور هوجو الذي تعاطف مع البائسين في رواياته وكتاباته. لقد أيّد الاحتلال الفرنسي للجزائر ولم يلتفت إلى المذابح والجرائم التي ارتكبها الفرنسيون الغزاة في بلد مسالم لم يذهب لمقاتلة الفرنسيين في بلادهم. وسار على نهجه كتاب غربيون

ومثقفون كبار من أمثال كارل ماركس ، وفريدريك إنجلز في الإشادة بالوجود الاستعماري لفرنسا في الجزائر المسلمة.

على الجانب العربي الإسلامي خذ مثلا طه حسين، حين أهدى رسالة الدكتوراه التي قدمها إلى جامعة السوربون عام 1918م، إلى السلطات الفرنسية التي تقاوم البرابرة في سبيل نشر حضارتها (يقصد أهل الجزائر ولا يقصد البرابرة –الأصل الأمازيغي لبعض سكان الجزائر- ولكنه يقصد الهمج بالمفهوم الثقافي المنحاز للغرب وثقافته). لم يكن هذا الاهداء اعتباطيا، ولكنه كما أشار بعض الكتاب مجاملة لزوجته الفرنسية سوزان بريسو، ولجنة المناقشة والمشرفين عليه. وإن كان في مرحلة متأخرة قد أسقط هذا الإهداء حين شعر بالخطأ الشنيع. وليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعداه إلى الإشادة بالغرب وثقافته في كتابه الشهير «مستقبل الثقافة في مصر»، الذي يطبعه المثقفون الاستعماليون في مصر مرارا وتكرارا مكايدة للإسلام والمسلمين، فقد انخدع طه بوهم الحداثة والتنوير الغربيين، واندفع ليطالب بقبول الحضارة الغربية بخيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحبّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب، بعد أن حمل حملة عنيفة على الشرق وحضارته. وللإنصاف فقد تمنى في أخريات حياته أن يراجع كتابه ربما للتخفيف من غلوائه تجاه كراهية الشرق، وحب الغرب!

اتسخت أذناه

وهناك كاتب جزائري آخر يدعى قدور بن غبريط تحدث عنه أحمد حسن الزيات في «وحي الرسالة»، فذكر أنه حضر تدشين مسجد باريس في عام 1926، واتّسخت أذناه مما سمع من تزلف بن غبريط وتملقه لفرنسا، فلما جمعهما لقاء سأله: «كيف يبتهج العرب بعيد الحرية وهم عبيد؟ ويفتخرون بمجد فرنسا وهم أذّلة؟». فلم يدعه يتمّ كلامه وإنما قاطعه محتدّا بقوله: «لا يا سيدي، ليس الفرنسيون بأكثر فرنسية منا، نحن نتمتع في ظلال الجمهورية بالإخاء الصحيح، والرخاء الشامل. وإن الجنود الجزائريين في الجيش والشرطة، والعمال المراكشيين والتونسيين في المصانع والمزارع يُعاملون بما يعامل به الفرنسي القحّ. أدام الله نعمة فرنسا على شعوب العرب، ونفع بعلومها وحضارتها أمم الإسلام!».

لقد حول بن غبريط مسجد باريس إلى إقطاع له كما وصفه مالك بن نبي، حيث اتخذ مسجد باريس منبرا لتزكية الاحتلال وشرعنته. ونسي أن الاستعمار الذي مضى عليه قرن لم يأل جهدا في محاربة اللغة العربية والدين الإسلامي والشخصية الوطنية. (اقرأ تفصيلا أوسع في مقال: إبراهيم مشارة، حين يمجد المثقف الاستعمار: سقطة طه حسين وتناقض ماركس، القدس العربي،29 نوفمبر،2020).

المثقف الاستعمالي لا يبالي بما ينبغي أن يقوم به، لا يرقب إلا ولا ذمة، على استعداد أن يبيع الدين لو كان عالم دين، ولا يخجل أن

ينقر الدف أو يدق الطبل لو كان أديبا أو كاتبا، وقد رأينا من يبشر بصورة الدين الجديدة التي رسمها الغرب للمسلم الذي يفرط في أرضه وهويته، ويمارس اللهو والمحرمات، ويعيش متسولا في العلم والإنتاج على أكتاف الآخرين، ورأينا كتابا مواهبهم متواضعة يهللون لبعض القرارات والقوانين التي تنتقص من الحرية وتؤصل للاستبداد، ولا يكتفون بذلك بل يشبهونها بعبور المقاتلين في حرب رمضان.

وبدلا من دفاع المثقف الاستعمالي عن حقوق الإنسان في الحرية والكرامة والمساواة والأمل والديمقراطية والشوري والتعبير عن هويته واحترام خصوصيته، يتحول إلى مساندة الطغاة والمستبدين، والوشاية بزملائه الأحرار، ويركز على القضايا الهامشية التي تشغل الناس ولا تنتج فائدة كبيرة للشعب، مثل الحديث عن الراقصات.. وفضائح الفنانين، وكرة القدم.. والحوادث الفردية التي محلها أقسام الشرطة والمحاكم!

نفاق.. وتناقض

المثقف الاستعمالي يذرف الدموع ويبدي مشاعره المرهفة تجاه ذبح الأضاحي في العيد، ولكنه يتجاهل ذبح المسلمين في بلاد الاستبداد والتعصب والوحشية. يشغله غشاء البكارة ويدين الناس لاهتمامهم بالعفة، ولكنه لا يهتم بغشاء الظلم والقهر والاستبداد والفساد الذي يذبح الأمة ويحولها إلى معرة البشر! يتحول أحيانا –ويا للسخرية- إلى مخبر شرطة حين يشي بالكتاب الرساليين أو

العضويين إلى أجهزة الأمن، وكأن هذه لا تعرف دبة النمل في حياة من يحملون الأقلام أو يخاطبون العقول والأفئدة!

المثقف الاستعمالي يكاد أن يكون وحده في الميدان في معظم بلادنا العربية، وينتشر في الصحافة والسياسة والسينما والدراما والفكر والأدب، وهو ما يمثل إعاقة كبيرة لأمتنا ،وأملها في النهوض والتقدم. فقد تم تغييب المثقف الرسالي وتهميشه بل استئصاله في كثير من الأماكن.

6- العارف بالله.. قاهر الاحتلال...!!

من أكبر التحديات للأدب المعاصر في بلادنا أن يتم الترويج لأدباء محدودي الموهبة، مسطحي التفكير، لا يحسنون اللغة، ولا يتقنون غير الدعاية للسلطة، ومحاربة حقوق الإنسان في الحرية والكرامة والديمقراطية والشورى، والوقوف إلى جانب صندوق الذخيرة بدلا من صندوق الاقتراع.. لذا يأتي ما يكتبون مفرغا من نبضه الإنساني، وطعمه الخلقي، ونكهته البشرية. ما يكتبونه ضحالة وخواء وكراهية حاقدة تجاه الإسلام، وتملق رخيص للطوائف والأقليات، ودعاية فجة تصل حدّ البذاءة ضد الشرفاء، لا يذهب أثرها بعد طيّ صفحتها، وانتهاء وقتها..

لا تجدي عمليات النفخ النقدي، والتفسير الحداثي المفتعل لأصحاب المواهب الضحلة وكتاباتهم من عيّنة أن شفرة النص الذي يكتبه أحدهم تعني أنه ذو بعد كوني أنطولوجي في مرحلته الأولى، وله طابع معرفي إبستمولوجي في الثانية، ويتمتع بأساس إكسيولوجي في الثالثة، وله سمة كوزموبولوجية في الرابعة، وقوة ترانسندنتالية في الخامسة، وصفات فينومينولوجية في السادسة، وأيديولوجية في السابعة.. هذا الإيهام العبثي بالمصطلحات الغربية لا يصنع أدبا حقيقا، ولا يمثل تجديدا أو تحديثا، فأي نص هذا الذي يحتاج إلى كل هذه المصطلحات التي تعني توصيف الوجود ونظرية المعرفة

وعلم القيم العليا والمطلقة والكونيات وتجمع الجغرافيا والتاريخ والتسامي والتعالي وعلم الظواهر أو الظاهراتية أو المبدأ والعقيدة والمذهب؟ ما هذا النص الملغز الذي يحمل كل هذه الدلالات ويحتاج إلى تفسير عبقري؟ هل النص الذي كتبه كاتب شبه أمي لقراء معظمهم محدودي الثقافة والفكر يمكن أن نجد فيه كل هذه الحمولة الدلالية؟

دعاية وشهرة لا يستحقهما

سأقدم كاتبا تم تصنيعه في فترة الستينيات ليكون مثقفا استعماليا ويحظى بدعاية وشهرة لا يستحقهما، ولن أذكر اسمه لأن شخصه لا يعنيني، خاصة بعد أن أفضى إلى خالقه. الذي يعنيني هو تصنيعه ليكون معاديا للتصور الإسلامي، مواليا للاستبداد، مرحبا بالفكر الطائفي الانعزالي، استئصاليا لكل صوت يهتف باسم الله. ثم وهو الأهم أنه سيُمَكّن من منصة إعلامية ثقافية يستطيع من خلالها أن يستأصل الخصوم ويقرع الطبول وينقر الدفوف، ويثبت وجوده أمام من بيدهم الأمر.

سأسميه "العارف بالله"، وفقا لتسمية السيدة زوجه، وهي تتغزل في مناقبه بعد رحيله بأعوام، وتهجو الإخوان المسلمين الذين منعوا علاجه كما تدعي، وتروي ما زعمت أنه تفاصيل معركة زوجها مع الجماعة بعد وصولها إلى الحكم عام 2012، موضحة أنه قرر كتابة مقال يومي في جريدة "الأخبار" يحمل اسم "عبور"، فور تولى جماعة

الإخوان حكم البلاد لفضح ممارسات هذه الجماعة. ويا لها من جماعة طيبة تسمح لكاتب يعمل عندها بمحاربتها؟!!

لا أسخر من تسميته العارف بالله. فقد تكون تجليات الرحمة الإلهية قد هبطت عليه في أيامه الأخيرة فتاب إلى ربه وأناب، واستغفره مما فعله من قبل، ولكني أتحدث عن صورة الواقع التي خلفها أمام أعيننا نحن القراء والمتلقين. ورحمة الله واسعة، ولا يردُّ عن بابه مسترحِمٌ مستغفِرٌ.

لم يتوضأ.. ولم يدخل مسجدا

أقدّر وفاء المرأة لرجلها شريطة ألا تعتمد على الأساطير التي تحوله إلى بطل مظلوم على غير الحقيقة، ولا مانع أن تؤكد أن زوجها لم يكن مجرد مشروع أصيل في الإبداع ولكنه كان مجرة إنسانية كبيرة وأن تطلق عليه لقب العارف بالله، وهو الذي لم يتوضأ ولم يدخل المساجد إلا عبر برامج تلفزيونية كانت عطية من السلطة التي يخدمها ضمن العطايا الكثيرة التي أغدقتها عليه طوال أربعين عاما أو يزيد، لقد دخل المساجد من أجل أن يتحدث فقط عن الآثار الإسلامية وهندسة المعمار والنقوش والتصميمات والأرابيسك.. إلى غير ذلك. لا مانع أن تقول الزوجة إنه أمير المؤمنين عمر إذا شاءت، لأن هناك من لهم رأي آخر، ولا يتقبلون ما تقوله لأنه ليس صحيحا.. أما أن تدعي أن الجماعة منعت علاجه فأمر غريب، لسبب بسيط وهو أن الجماعة لم تكن تملك من أمرها شيئا، فالحكومة العميقة كانت تهيمن على كل شيء تقريبا بما فيها المستشفيات

المدنية والعسكرية، ثم إنه لم يكن مريضا في زمن الإخوان، فقد كان عائدا من العلاج في مستشفى كليفلاند بأميركا على نفقة الشعب المظلوم أو نظام مبارك، وظل سليما معافى يهاجم الرئيس المنتخب والجماعة وهو آمن، ولم يعاوده المرض إلا بعد رحيل الإخوان ودخولهم قعر مظلمة، واستشهاد كثير من قادتهم وأعضائهم في حملات ظالمة. فوصفهم بأنهم جيش احتلال وتنظيم أجنبي، وأنهم يملكون ميليشيات موازية، ودعا الجيش كي يحكم مصر لفترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات، وعدّ أتباعه ما قاله معركة قهرت الاحتلال الإخواني كما سماه! ووصفوه أنه رجل حرب ومحارب جسور لا يكل ولا يمل، يقاتل فى أحلك الظروف وعبر جبهات قتال مختلفة قادها بكل قوة، لأنها ضد عدو يعيش على أرض مصر"!!.

شيء سماه رواية

بدأ العارف بالله حياته عاملا في أحد المصانع، فهولا يملك غير مؤهل متواضع لا يجاوز الإعدادية، والمؤهل ليس شرطا لإثبات الوجود، فالعقاد لم يحمل من الشهادات غير الابتدائية القديمة ولكنه كان يفوق كثيرا من حملة الدكتوراه والأستاذية. اتجه صاحبنا العارف بالله إلى الأدب بكتابة شيء أطلق عليه اسم "رواية" ويقع في 42 صفحة، ويضم أشتاتا غير مترابطة، بعضها توثيق حياته الشخصية، إضافة إلى بعض الأغاني الوطنية، وبعض النصوص التراثية من كتب التاريخ في العصر المملوكي. والمشكلة ليست في هذه الأشتات غير المجتمعات أو غير المنسجمات ،وإنما في اللغة الركيكة،

والأخطاء الفادحة في النحو والصرف والصياغة، فهي كتابة بعيدة عن الأدب والفن جميعا. ومع ذلك فقد وجد دراويش من بين الشيوعيين الذين ينتمي إليهم، وأشباه الشيوعيين الذين يبحثون عن الشهرة والمنفعة يقيمون له الموالد وحلقات الذكر، والتبشير به خليفة لنجيب محفوظ في القصة الرواية، ولأن العارف بالله كان قد اعتقل في منتصف الستينيات لبضعة أسابيع مع مجموعة من رفاقه، فقد خرج بعدها ليجد قيادة شيوعية ترأس مؤسسة صحفية كبرى يأخذ بيده ليعينه محررا بصحف المؤسسة ويتبناه بوصفه موهبة مبشرة، وأتاح له الظهور الإعلامي والثقافي ليكون مع رفاقه- كما زعموا- علامة على جيل الستينيات الذي قلب الموازين الأدبية وأعلن عن ميلاد جيل جديد يختلف عن جيل الرواد ومن جاء بعدهم.

هبوط المستوى الأدبي

كان هذا الجيل أو أفراده في مفهوم القيادات التي بشرت به ماركسيا، واعتقل أعضاؤه ومن بينهم العارف بالله لمدة أسابيع كما سبقت الإشارة، يمثلون الحالة التي هبط إليها المستوى الأدبي بصفة عامة. والمفارقة أنهم كانوا أصدقاء لوزارة الداخلية! وكان أحدهم وهو من كتاب الأغاني المشهورين لا يكاد يغادر مكتب الإعلام في الداخلية، ويفخر بصداقته الدائمة لرئيسه على تتابع الوزراء، والمفارقة الأكثر طرافة أن أول مؤتمر أدبي لما سمي بأدباء الأقاليم الشبان انعقد في مدينة الزقازيق عام 1968م، كان برعاية وزير

الداخلية الشهير شعراوي جمعة ورئاسته، وكان معظم حضوره من السادة الشيوعيين وأشباههم من أعضاء التنظيم الطليعي، الذين صاروا فيما بعد على رأس منصات وزارة الثقافة والصحافة ومنصات أخرى.

استطاع العارف بالله أن ينشئ علاقات عميقة مع القيادات العسكرية قبيل حرب رمضان من خلال تغطيته للعدوان الصهيوني على مدن القناة، وكتب تحقيقات عديدة عن الجنود لقيت اهتماما في الصحيفة التي يعمل بها، وتمت ترقيته إلى رئيس قسم بعد أن توطدت علاقته برؤسائه، وقيل إنه كان يكتب لبعضهم مقالاته التي يقوم قسم التصحيح بمراجعتها وتصويبها، وكان من الطبيعي مكافأته بإنشاء مطبوعة متخصصة من أجله ليرأس تحريرها، فقرّب إليه من يذيعون على موجته، واستئصال أصحاب الرأي والفكر المستقل وخاصة إذا كانوا مسلمين! وصار يتعامل مع زواره والواقفين على باب مكتبه بغطرسة وعجرفة واستعلاء.. أليس العارف بالله رئيسا للتحرير في الزمن المقلوب؟

مصدر خير معنويا وماديا

على كل حال، فقد أضحت المنصة المتخصصة مصدر خير عظيم للعارف بالله معنويا وماديا. استطاع من خلالها أن يوظف مجموعة كبيرة ممن يشتغلون في النقد الأدبي داخل مصر وخارجها ليكتبوا عن كتاباته تحت عناوين مختلفة ترفعها إلى السماء مع سطحيتها وخواء معظمها من الأفكار ذات القيمة الإنسانية، ومن ناحية أخرى

كسب شهرة كبيرة انخدع بها كثير من الأكاديميين الذين اندفعوا بالدعاية الصارخة في مطبوعته وامتداداتها في أجهزة الدعاية المرئية والمسموعة والمقروءة إلى كتابة بحوث ورسائل علمية قيل إنها وصلت إلى ست وعشرين رسالة دكتوراه وماجستير، ولا أدري ماذا وجد الباحثون فيها، ولكن أحد الأكاديميين رأى أن أشهر ما يفخر به العارف بالله من روايات مأخوذ نصًا من ابن إياس وآخرين!

حاولت بقدر استطاعتي ان أتابع ما كتبه العارف بالله فوجدت أن ما يمكن أن نطلق عليه اسم رواية أو قصة لا يعدو أن يكون من قبيل النميمة في المؤسسة التي كان يعمل بها، ولا تحمل فكرا أو رؤية إنسانية راقية، فضلا عن الكتابات المستخلصة من كتب التاريخ في العصر المملوكي. وأظن أن كتاب السيناريو الذين نقلوا كتاباته إلى الشاشة الصغيرة أو الكبيرة هم أصحاب الفضل في تحويلها إلى شيء له قيمة!

أوسمة من عواصم تعادي الإسلام

استطاع العارف بالله أن يوظف المنصة لكي يحضر المؤتمرات الخارجية، ويوظف علاقاته مع من بيدهم المنح والمنع في دول العالم الاستعمارية ووكلائهم في المنطقة، وأن يجد من يترجم له أعماله الهشة إلى لغات أجنبية، وأن يحظى بعدها بأوسمة ونياشين من عواصم تكره الإسلام والمسلمين، ولها تاريخ أسود في نهب الشعوب الإسلامية وذبح أبنائها. وما بالك بمن يشيد بهؤلاء الوحوش ويعدّهم مصدرا للاستنارة والحداثة على حساب دينه وقومه وحريتهم

وكرامتهم؟ أليس من حقه أن يعلق أوسمة الفروسية والبطولة على صدره؟ يكفي أن تتحول الحملة الهمجية الدموية لنابليون التي قتلت سُبْع الشعب المصري إلى (علاقات ثقافية وتنوير) على منصة العارف بالله ومنصات رفاقه.

في المجال المادي فإن مطبوعة العارف بالله قربته من بعض الطغاة العرب الذين لم تكفهم متعة إذلال أوطانهم البائسة، ووضع أحذيتهم فوق رءوس شعوبهم، بل أرادوا الاستمتاع بلقب أديب وكاتب، وكان العارف بالله أحد الذين نالهم نصيب مادي كبير، سواء بكتابة بعض الروايات الركيكة التي نسبت إلى القائد البطل حارس البوابات الغربية والشرقية للأمة العربية، أو الكتابة عن مغامرات عسكرية دامية كلفت الشعوب العربية كثيرا من الدماء والأموال والأسلحة التي انتهت إلى نتائج مؤسفة ليس أقلها الذل والعار والهزائم التاريخية!

البصمة الأدبية تؤكد

كان طبيعيا أن ينفي العارف بالله جريمته، ولكن من يعرفون البصمة الأدبية يؤكدون بما لا يدع مجالا للشك أنه وقف إلى جانب الطاغية الأرعن، وحظي بنصيب من المال غير قليل ،ويبدو أن الانتقال من أعماق الأحياء الفقيرة إلى سكني الأحياء الأرستقراطية يستحق دهس القيم الرفيعة والأخلاق الكريمة التي يجب أن يتحلى بها من يمسكون بالقلم ويفترض أن يكونوا مثقفين من النوع الرسالي بالنسبة للمسلمين والعضوي بالنسبة للماركسيين أو الشيوعيين عموما.

ظل العارف بالله طوال ربع قرن يقف وحده على المنصة المتخصصة، يستمتع بالريع الذي تغدقه عليه ماديا ومعنويا، فضلا عن نوع من الذكاء في استقطاب أفراد من ذوي المكانة في جهات عليا، يكتب عنهم ويروي قصصهم، وهو ما يناغي وترا حساسا في النفس البشرية بصفة عامة، فأيقن أنه مسنود ومتمكن وراسخ إلى الأبد في مكانه الذي توسع فوصل إلى الشاشات والموجات والصفحات داخل البلاد وخارجها بمقابل ليس قليلا ،لدرجة أنه واجه وزيرا مقربا من السلطة حين منع الإعلانات التي تنشرها الوزارة في مطبوعته، فطرح في محاولات الصلح بينهما أن يتولى منصبا مرموقا في إحدى مؤسسات الوزارة المهمة، ولكن الوزير كان أقوى!!

تعيين البديل .. وبقاء الامتيازات

جاءت ثورة يناير الموءودة، فغيرت رؤساء المؤسسات الصحفية، وهرب بعضهم إلى الخارج بدعوى العلاج أو نحوه، وجاء آخرون ،فأحدثوا تغييرات في مؤسساتهم، وكان طبيعيا تعيين بديل للعارف بالله بعد ربع قرن في منصبه، مع بقائه بامتيازاته السابقة في المؤسسة وفرصة الكتابة اليومية، وعضوية التشكيلات النقابية والتحريرية، وبقاء صبيانه وتلاميذه في مواقعهم الموالية له. ولكن هذا لم يرضه، فأشعل الحرب ضد الإخوان متوهما أنهم يحاربونه لأهميته السياسية، وأظنه- ولست مدافعا عن الإخوان فهم أقدر على الدفاع عن أنفسهم- لم يضعوه وأمثاله في أذهانهم لسبب

بسيط، وهو انشغالهم بحملات إفشالهم وتشويههم والتخلص منهم، والدليل على ذلك أنه كان يهاجمهم ويهاجم الرئيس المنتخب ولا يصيبه أذى أو مكروه، ويعود مطمئنا إلى مسكنه الفخم، ويسعد بزوجه التي وصلت إلى منصب رئيس تحرير بمرتب ضخم في إحدى المطبوعات بأعرق المؤسسات الصحفية، وينظر بمتعة إلى ولديه اللذين ذهبا للدراسة في أميركا، وتم تعيينهما في بعض المؤسسات التي يطلق عليها سيادية بعائد مريح وجاه كبير، وهو ما ينسيه نشأته المتواضعة.

دعاية لم يحظ بها الكبار

ثم إنه بعض طيّ صفحة الثورة، وانقطاع الأمل، عاودته المتاعب الصحية، فاهتمت به السلطة ونقلته إلى أفخم المستشفيات، وزاره كبار المسئولين، حتى لقي ربه، وتم توديعه بدعاية لم يحظ بها طه حسين ولا العقاد ولا توفيق الحكيم، حتى كتّاب السلطة الكبار لم ينالوا هذا الوداع!

هناك نماذج كثيرة للمثقف الاستعمالي، أدت وما زالت تؤدي دورها، في نشر السطحية والتفاهة، وخدمة أغراض أخرى غير أدبية، والهبوط إلى درك سحيق من السوقية والابتذال باحتضان القيم المادية الرخيصة والترويج لها بوصف ذلك حرية تعبير وحرية فكر.

***

7- الجوائز الأدبية .. وتراجع الأدب

يفترض أن تكون الجوائز الأدبية عامل دفع للأدب وتنميته وازدهاره، والكشف عن الموهوبين والفائقين في ميدان الكتابة الفنّية، وتشجيع التنافس بين شداة الأدب والكتابة الإنشائية وتدعيم استمرارهم، بوصفهم طلائع الأمة نحو المستقبل، بما يقدمونه من رؤى وتصورات في نصوص ناعمة يشتاق إليها القراء ويتابعونها بشغف، يتشربون منها العواطف الصحيحة والمشاعر السليمة والآمال المجنحة والأفكار الناضجة لبناء غد أفضل في شتى مجالات الحياة.

أقدم جائزة

ولعل أقدم جائزة أدبية مرموقة على مستوى العالم هي جائزة نوبل 1910م، ومع تداخل عوامل غير أدبية في منحها، فإن معظم كتّاب الأرض يتمنون الظفر بها، ليس لقيمتها المادية المرتفعة(حوالي مليون يورو) فحسب، ولكن لمردودها المعنوي، الذي لا يتوقف عند الفائز وحده، ولكن يتعداه إلى مردود مادي أيضا يحظى به تجار الكتب على مستوى الكرة الأرضية، حيث تترجم أعمال الفائز إلى معظم اللغات البشرية وتنشر على نطاق واسع.

وللأسف فإن عددا لا بأس به من الكتاب الذين فازوا بالجائزة، في العقود الثلاثة الأخيرة على الأقل، لم يكونوا على مستوى التميز والتفرد مثل سابقيهم، بل إن بعضهم لم يقدم شيئا ذا بال في مجال

الأدب.، مثل المغني الأميركي بوب ديلان الذي فاز بالجائزة عام 2016، ولم يعرف عنه غير تأليف بعض الأغاني التي يقوم بأدائها، وللأسف فهناك في عالمنا العربي من يرى في ذلك تطويرا للجائزة(؟؟).

هشاشة .. وعنصرية!

ولم يتوقف الأمر عند هشاشة المستوى الفني للفائزين بالجائزة أخيرا، بل امتد إلى منحها لكتاب خلت قلوبهم وأعمالهم من الرحمة والإنسانية، واكتظت بالعنصرية والوحشية، مثلما حدث مع الكاتب النمساوي "بيتر هاندكة" الذي يكتب بالألمانية، فقد دافع عن الصرب القتلة وجرائمهم ضد المسلمين في البوسنة والهرسك، وضمّن ذلك كتابه "رحلة شتوية في أنهار الدانوب وساف وموارافا ودرينا أو العدالة الصربية" المنشور في عام 1996. وفي عام 2004 قام بزيارة سلوبودان ميلوسوفيتش مجرم الحرب الصربي في سجنه في لاهاي. وفي عام 2005 تم توجيه الدعوة إليه بوصفه شاهدا من قبل هذا المجرم، الذي أدانته محكمة مجرمي الحرب الدولية في لاهاي بتهم الإبادة الجماعية والجريمة ضد الإنسانية. وفي 18 مارس 2006 حضر هاندكه جنازة ميلوسوفيتش ووقف على قبره خطيبا يشيد بالمجرم ويدافع عن جرائمه، وفي 2 يونيو 2006 اعتذر هاندكه عن جائزة هاينريش هاينه من مدينة دوسلدورف، وتقدر قيمتها المالية بـ 50 ألف يورو، وكانت تمنح للمرة الأولى. ودعا إلى تحويل القيمة إلى إعانة القرى الصربية العدوانية في كوسوفو. بالإضافة إلى

مواقف أخرى تصبّ في تأييد الروح الصليبية الهمجية المتوحشة ضد الإنسانية.

مَنْحُ نوبل لكاتب يقف إلى جوار الوحشية، يعني أن الجائزة فقدتْ غايتها الإنسانية والخلُقية كما زعم صاحبها والقائمون عليها. ويبدو أن نوبل لم تكن وحدها في دعم هذا الكاتب العنصري محدود القيمة الفنية، فقد سبقت جهات غربية أخرى إلى منحه جوائزها، ومنها: جائزة جيرهارت هاوبتمان 1972 – الجائزة الأدبية من ولاية شتايرمارك 1973 – جائزة شيلر من مدينة مانهايم 1973 – جائزة جيورج بوشنر 2019.

حذو نوبل

وقد حذت كثير من الدول والمدن حذو نوبل، فأنشأت جوائز أدبية خاصة تخدم أغراضها السياسة والثقافية، وإن كانت قيمتها المادية والمعنوية أقل من نوبل، وتأثيرها محدود بجغرافية اللغة المكتوب بها هذا الأدب، ويتعداها أحيانا إلى مسافات غير بعيدة من خلال الترجمة إلى لغات أخرى، بهدف البحث العلمي وخاصة في مجال المقارنة الأدبية.

وتشير بعض الإحصائيات إلى أنه يوجد في دول العالم المختلفة، حاليًا، ما يزيد على 500 جائزة أدبية معروفة منها جائزة أكوتاغاوا اليابانية، التي أُنشئت عام 1935، وهانز كريستيان أندرسن لأدب الطفل. وجائزة فرانز كافكا، في عام 2001. وجائزة أمير أستورياس الإسبانية، والجائزة النسوية المشهورة، وهي فيميناFemina. وجائزة

بوليتزر، وجائزة جونكور الفرنسيتين، والأخيرة تمنح عادة للأدباء العرب الفرانكوفونيين الموالين لفرنسا المعادين للثقافة الإسلامية، وجائزة ميجيل دو ثيربانتيس، وجائزة بريمو بالينتا الإسبانيتين...

أقدم الجوائز العربية

ولعل أقدم الجوائز العربية الأدبية ما ارتبط ببعض الأميرات المصريات مثل جائزة قوت القلوب الدمرداشية التي فاز بها بعض الأدباء الرواد في الأربعينيات، لكن تبقى جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة هي الأكثر رسوخا وجدارة ونزاهة في العالم العربي حتى اليوم، وقد فاز بها عديد من الأدباء الرواد في مجالات الشعر والنثر والدراسة الأدبية والمسرح وتحقيق التراث، وكانت قيمتها المادية في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي معقولة بالنسبة للوضع الاقتصادي آنئذ، وإن كانت قد تواضعت في العقود الأخيرة بحكم تآكل العملة، وكات وزارة المعارف المصرية تعلن عن بعض الجوائز الأدبية في العهد الملكي، وما بعده بقليل حتى أعلنت السلطة الجديدة في عهد الجمهورية عن جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية في أوائل الستينيات، وكان من أوائل الفائزين بها طه حسين ثم العقاد والزيات والحكيم وفريد أبو حديد.. وكان للجائزة حضور غامر في الأوساط الثقافية في العالم العربي والإسلامي لما كان يمثله الفائزون من رمزية مهمة للثقافة العربية الإسلامية وحضورها في الوجدان العام وما تثيره من قضايا جادة ومناقشات مثمرة.

تحولات.. وعُرف!

بيد أن سيطرة السلطة على الثقافة وإسناد مهامها إلى الشيوعيين والناصريين وأشبا ههم، حمل تغييرات كبيرة، وقد تحولت جوائز الدولة إلى عشرات الجوائز في فروع كثيرة، تشمل الأدب والعلوم الاجتماعية والفنون التشكيلية والسينمائية والتمثيلية، ودخل إلى جنتها كثير من اليساريين من المخرجين والممثلين وكتاب السيناريو وغيرهم، وباتت أخيرا مصدر رزق حرام يسعى إليه من سماهم وزير ثقافة أسبق بالحظائريين، أي من دخلوا الحظيرة الثقافية، وصار بينهم عرف غير مكتوب في ترتيب الحصول عليها ومعرفة من يحصل عليها هذا العام والعام القادم والعام الذي يليه، وخاصة فيما يتعلق بالجوائز ذات القيمة الكبيرة (مبارك، التقديرية، التفوق...)، ومن ضمن هذا العرف أو الاتفاق الضمني ألا يحصل عليها مسلم يؤمن بإسلامية المجتمع وثقافته، وهو اتفاق صادف توجّها أمنيا تؤصّله السلطة، ويوحي بنبذ الإسلام عن هوية المجتمع، وإحلال هويات أخرى غريبة عنه.

ومن الغرائب في عملية منح هذ الجوائز تشكيل لجنة تسمى لجنة الفحص، تستبعد من التصويت كل منتم إلى الهوية الإسلامية، ولو كان في منزلة العقاد والرافعي والزيات، وقد عاصرت من قريب واقعة مخزية للجنة الفحص هذه. فقد رشحت إحدى الجامعات المصرية أستاذا مرموقا، وكاتبا معروفا له أكثر من مائة كتاب لجائزة الدولة الأولي التي تسمى النيل، فإذا باللجنة المذكورة التي يهيمن عليها

أشخاص يساريون أذكياء جدا، تستبعد المرشح من العرض على التصويت، وضربت عرض الحائط بآراء الأساتذة الجامعيين، في الأقسام ومجلس الكلية، ومجلس الجامعة الذي يضم العمداء وأهم الأساتذة. ولم تكلف نفسها عناء إخطار الجامعة بأسباب موقفها الأمني البائس!

أذكر أني سألت الأستاذ أنور الجندي، والدكتور محمد رجب البيومي رحمهما الله عن شعورهما لعدم حصولها على جوائز الدولة مع أنهما حصلا على جوائز عديدة من جهات أخرى، فكان ردهما متقاربا، حين قالا: إنهما ينتظران الجائزة من الله!

وأذكر أن الدكتور حسين مجيب المصري- رحمه الله- رشحه بعضهم لجائزة التفوق، وكان أفضل من كثيرين حصلوا على أكبر جائزة، وهي النيل، ويتقن نحو عشر لغات ، وله عشرات الكتب في مجال الأدب المقارن الترجمة عن اللغات الشرقية والغربية، فإذا بلجنة الفحص إياها تستبعده، ويتساءل أحدهم بجهالة: من هو حسين مجيب؟

معايير أخرى

لم تعد المعايير الفنية والأدبية هي التي تحكم المنح، ولكن ظهرت معايير أخرى، من قبيل منح التقديرية لكاتب أغان سخيفة غير موزونة في الأغلب، وممثلة لا تجيد غير أدوار بنات الليل، وكاتب سيناريو لا يحسن غير هجاء الإسلام ووصمه بالإرهاب. أما الجوائز التشجيعية فحدث ولا حرج! قليل من الفائزين يستحق الجائزة

بالمعايير الفنية والأدبية، وأكثرية ساحقة لا تستحقها بهذه المعايير، ولذا لم تعد هذه الجوائز تثير اهتماما لدى الجمهور، لأن أصحابها لا يملكون قوة التعبير والتأثير.

نشأت في العقود الأخيرة جوائز مهنية ونوعية عديدة في المؤسسات والجامعات والهيئات المختلفة والجمعيات الطائفية المسلحة بفائض المال الذي يفوق مال الحكومة، وتمنح جوائزها لمن يزدرون الإسلام ويستخفون به، أو يعادونه عداء صريحا، ويشوهونه ويحرضون عليه، ويبثون الضغينة والإحن بين المسلمين وغيرهم. وقد عالجت ذلك في بعض كتبي النقدية.

وفي كل الأحوال فقد أفرزت الجوائز نفرا من متوسطي الموهبة والمسطحين ثقافيا؛ يعرفون كيف يقتنصون الجوائز، ويتقنون فن الحصول عليها والوصول إلى مفاتيحها، فصارت وسيلة للكسب الحرام على حساب اللغة والقيمة والفن.

جوائز لخصوم الإسلام

وقد تبنت معظم الدول العربية التي جعلت للثقافة وزارة ووزيرا ومؤسسات، النهج المصري، فخصصت جوائز تمنح لمؤيديها، خاصة من يرفضون الإسلام ثقافة وتطبيقا حياتيا، وللأسف قامت حظائر ثقافية في معظم البلدان العربية يقودها اليساريون وأشباههم تتحكم في منح الجوائز، وتجعلها مقرونة عادة بالمحتوى المعادي للإسلام، الموالي لأحط عناصر الثقافة الغربية، البعيد عن التقاليد الأدبية والقيم الفنية.

ومن المدهش أن الذين يحكّمون في هذه الجوائز من تيار واحد عادة، تراه في معظم العواصم العربية يقوم بمهمته السلبية نفسها. وقد اعترفت واحدة من المحكّمات أنها تضع لنفسها معيارين أساسيين لا يمكن أن تحيد عنهما: المعيار الأول هو الخطاب الجمالي ومدى تحقق الأدبية والجمالية في النص، وهذا معيار لا غبار عليه، والمعيار الآخر هو الخطاب الثقافي الذي يتضمنه النص، ومدى قبول هذا الخطاب من منطلق وعيها الفكري والأيديولوجي، فإن تحقق للنص مستوى أدبي يرضي ما تقتنع به أدبيا ونقديا (أي كان علمانيا) منحته الجائزة، لكنها لا تمنحها إذا كانت فيه روح الإسلام!؟؟.

تفاهمات شفهية

ولم يكتف هذا التيار بمنح الجوائز لأتباعه بل وضع لهم بعض التفاهمات غير المكتوبة، منها مثلا ان يعتمد النص على جرعة جنسية فجة تكبر وتصغر حسب قدرات الكاتب وطموحه إلى الجائزة، وأن يكون هناك نوع من التجديف أو تقديم شخصيات إسلامية قلقة أو توصف بالإرهاب والوحشية في مقابل شخصيات غير إسلامية تبدو ملائكية خاصة إذا كانت يهودية ومسيحية أو بوذية، وأن يتضمن النص شيئا عن اضطهاد المرأة وذكورية الرجل المسلم وشهوانيته الحيوانية التي لا تعرف التهذيب، فضلا عن اختراع ما يمكن تسميته بدين جديد، وهو الصوفية الحلولية من خلال الحلاج وابن عربي والتبريزي، وهي صوفية أقرب إلى الدروشة

والسلبية والاستسلام للحكام المستبدين والغزاة الطامعين، فقد مسحت هذه الصوفية منهج المقاومة للظلم، وشطبت على جهاد الأعداء والغزاة. بالطبع فإن هذه التفاهمات تتجلى في الأعمال السردية أكثر من غيرها.

أضف إلى ذلك أن هناك شبه اتفاق بين لجان التحكيم أن يتم منح الجائزة على أساس جغرافي فإذا حصلت مصر مثلا على جائزة تحصل المغرب بعدها ثم لبنان فالعراق فالجزائر فالسودان فالكويت فسورية ..وهكذا.. أي يتم تنحية العمل الأفضل من وجهة نظرهم لصالح التوزيع الجغرافي.

كتابة حسب الطلب

قليل من الجوائز المتواضعة من ينجو من عبث هذا التيار، ولم يعد سرا أن مانحي الجوائز العرب ذات القيمة المادية الكبيرة يعلنون على لسان منسوبيهم أن جوائزهم لا يحصل عليها من يخالفهم أو يقف ضدهم فكريا ولو كان من أفضل الكتاب والمثقفين. فصار الكتاب الطامعون في هذه الجوائز يكتبون وفق المعايير التي تقربهم منها ومن أصحابها، مما يعني أن الكتابة تتراجع، والأدب يضمحل، ولا يقولن أحد إن هذا الأدب يشبه مثلا أدب المدائح في أزمنة مضت، فقد كان معروفا أن أصحابه شعراء متكسّبون، ولكن المديح عرف من يأخذ به إلى مستوى آخر يمدح القيمة ولا يمدح الشخص، بل يجعل المادح في صف واحد مع الممدوح إن لم يرتفع عنه، كما فعل المتنبي!

لا ريب أن هناك جوائز خصصت لمن يخدمون الإسلام واللغة العربية، ومن يقدمون جديدا في مجالات العلم التطبيقي(الطب، الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات..)، وقد حصل عليها عدد ممن يستحقونها فعلا، ولكنها تظل مرتبطة بالمواقف الفكرية والسياسية للمتقدمين أو المرشحين، وهوما يذكرنا بجائزة نوبل وتداخل العوامل الخارجية في منحها.

جوائز طائفية للمعارضين!!

ومن الطريف أن بعض مانحي الجوائز من أصحاب المال الطائفي الوفير يزعمون أنهم يمنحون جوائزهم للمعارضين، وتنظر في هؤلاء المعارضين فتعلم أنهم من المعارضة المصنوعة حكوميا، أو من يسخر منها بعض الكتاب فيسميها المعارضة المستأنسة التي لا تتكلم إلا في الهوامش، كأن تنتقد الخفير النظامي، ولا تستطيع أن توجه كلمة إلى العمدة.

شراء الضمائر

لقد تحولت الجوائز الأدبية في كثير منها إلى وسيلة لشراء الولاء وإغلاق الأفواه أمام الاستبداد والفساد أو شاهد زور أو مدلس لا يقول الحقيقة كاملة، ويخلط بعضها بكثير من الباطل، ليبدو في صورة البطل الشجاع وما هو كذلك.

وينتج عن فوز بعض الكتاب بالجوائز العربية وخاصة التي ترتبط بجوائز دولية نوع من التجارة التي تروج لأدبهم الرديء، يقوم بها

تجار الكتب، وخاصة في المهاجر الغربية فتحقق لهم مكاسب كبيرة وشهرة لمؤسساتهم التي يتهافت عليها أشباه الموهوبين والنقاد المزوّرون، ويخسر الأدب بفقدان الأدباء الأصلاء والكتاب الممتازين الذين لا يعرفون طريق الدعاية ولا الأساليب الملتوية للحصول على الجوائز، لقد أضحت الجوائز الأدبية في عمومها طريقا لانهيار الأدب العربي وتراجعه.

***

8- جائزة نوبل.. ومكافأة الوحشية!

لم تعد جائزة نوبل العالمية تمثل موقفا إنسانيا ينحاز للقيم العليا والأخلاق والسلام، وخاصة في جوائزها التي تمنح للأدباء والسياسيين ورجال النشاط العام. فقد سبق أن منحتها بعض الأشخاص الذين تجردوا من الإنسانية وولغوا في الدماء وسرقوا حقوق الآخرين ويعملون على حرمان الشعوب من حق الحياة. فقد منحوها مثلا للإرهابي مناحم بيجين، والسفاح شيمون بيريز، والعنصرية القاتلة أون سان سو تشي- رئيسة ميانمار(بورما)،وأخيرا وصلت إلى رئيس وزراء إثيوبيا الذي يصرّ على حرمان الشعب المصري من حقوقه في مياه النيل ليموت عطشا!

في مجال الأدب كانت الجائزة تعطى أحيانا لأدباء مغمورين، لا يمثل إنتاجهم الأدبي قيمة كبيرة، وولاؤهم للثقافة الغربية أو الصهيونية، وفي هذا العام منحت لشخص عنصري فاشي، صفق لجرائم الحرب التي ارتكبها الصرب الصليبيون المتعصبون ضد مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفا. ولم يكتف بالتصفيق بل دافع عنهم وعن جرائمهم، وشيع جنازة أكبر سفاح صربي وهو سلوبودان ميلوسيفيتش، وشهد لتبرئته أمام محكمة جرائم الحرب الدولية في لاهاي بعد أن عبر عن تعاطفه معه ووقوفه إلى جانبه.

المفارقة أن رعاة الجائزة يرون أنفسهم غير مسئولين عن سلوك الفائز أو أفكاره ولو كانت ضد الإنسانية، ولا مجال عندهم لسحب

الجائزة من فائز يضرب بأهداف الجائزة عرض الحائط، فإن رئيسة ميانمار مثلا الفائزة بجائزة السلام، تقود حكومة تمارس التطهير العرقي ضد مسلمي الروهينجا وتطردهم خارج الحدود بعد أن تقتل منهم ما تستطيع، ولكن هيئة الجائزة تتنصل من مسئوليتها، وترى أنها منحت الجائزة، وانتهى الأمر.

سحب الجائزة

العالم الغربي في جوائزه الأقل يقوم بسحب الجائزة من بعض الفائزين إذا قيل مثلا إن أحدهم معاد للسامية، ولو كان ساميا، أو إنه يؤيد مقاطعة الكيان الصهيوني الدموي الذي يحتل فلسطين ويستعبد أهلها... فقد انتشرت، أخيرا في ألمانيا، ما يمكن أن نطلق عليه، فوبيا منح الجوائز للمعترضين على الممارسات الإجرامية الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني. وفي أقل من أسبوعين (أكتوبر 2019) قامت جوائز تمنح في ألمانيا بسحب الجوائز الأدبية والفنية من فائزين ارتكبا في زعم المانحين جريمة دعم حركة مقاطعة الكيان الصهيوني الغاصب.

في الواقعة الأولى أعلنت جائزة "نيللي ساكس" عن فوز الكاتبة البريطانية من أصل باكستاني كاميلا شمسي، بالجائزة من قبل مدينة دورتموند يوم 10 سبتمبر 2019، قبل أن يصدر منظمو الجائزة بيانا، في نهاية الشهر نفسه، قالوا فيه إن هيئة المحلفين غيرت رأيها بتكريم كاميلا شمسي، وأن جائزة 2019 لن تمنح هذا العام.

وقال بيان صادر عن الجائزة، إن هيئة المحلفين قررت منح الجائزة للكاتبة كاميلا شمسي لعملها الأدبي الرائع دون أن يكون أعضاء لجنة التحكيم على علم بأن المؤلفة شاركت فى إجراءات المقاطعة ضد حكومة الاحتلال بسبب ممارساتها ضد الفلسطينيين منذ العام 2014.

وقد أدانت كاميلا شمسي القرار فى بيان نشره موقع ميدل إيست آي، وقالت إنها شعرت بالحزن بسبب خضوع هيئة المحلفين للضغوط.

العداء للسامية!!

أما الواقعة الأخرى فتمثلت في قيام مدينة آخن الألمانية بإعلان نيتها سحب جائزة منحتها للفنان اللبناني وليد رعد بسبب دعمه لحملة مقاطعة الكيان الصهيوني.

ولحسن الحظ فقد وجد الفنان اللبناني من يدافع عنه، ويقف في وجه سحب الجائزة لأسباب موضوعية. كان رئيس بلدية المدينة، مارسيل فيليب، أعلن فى بيان رسمي أنّ سبب سحب الجائزة التي تبلغ قيمتها عشرة آلاف يورو هو دعم وليد رعد لحركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، والضغط على حكومة الاحتلال لمنح المساواة للمواطنين الفلسطينيين. وقد رفض "مجلس لودفيج للفن الدولي" تنفيذ القرار، معلنًا أن جائزة عام 2018 ستظل حاملةً لاسم وليد رعد. وأعلن المجلس أنّ أعضاءه لم يتمكّنوا من العثور على أى دليل يثبت أن رعد كان معاديًا للسامية،

وفى مقابلة مع المجلة الألمانية "Deutschlandfunk"، قال المدير التنفيذي للمجلس إن المتحف حصل على الدعم والتمويل لمنح الجائزة، ولم يكن بحاجة إلى إذن من بلدية المدينة لتقديمها لرعد.

وصمة عار

بيد أن حصول الكاتب المسرحي والروائي والشاعر النمساوي بيتر هاندكه على جائزة نوبل في الأدب لهذا العام 2019، كان وصمة عار في تاريخ الجائزة ومانحيها، وقد أثار موجة كبيرة من الغضب والحنق لدى أصحاب الضمير الإنساني في الأوساط الأدبية العالمية والمحلية. لقد سوّغت الأكاديمية السويدية اختيار هاندكه بأنه جاء تقديرًا "للعمل المؤثر الذي اكتشف براعة لغوية في أعماله وخصوصية التجربة الإنسانية"، وتجاهلت الجائزة تاريخ هاندكه وتجربته في دعم الصرب الذين فجّروا حرب يوغسلافيا العنصرية الدموية في التسعينيات، وإنكار المذابح الوحشية التي تمت في هذه الحرب، وهو ما عدّه كثيرون أمرًا غير خلقي وغير قابل للتبرير، فهو قريب جدًا من الزعيم الصربي العنصري السابق سلوبودان ميلوسيفيتش، ونفى ذات مرة المذبحة الصربية في سريبرينيتشا، وقارن مصير صربيا بمصير اليهود خلال الهولوكوست، مع أنه اعتذر في وقت لاحق عما وصفه بـ "زلة اللسان".

وهناك سؤال تم طرحه بعد إعلان الأكاديمية السويدية عن فوز هاندكه: لماذا استبعدت اسمه طوال سنوات؟ وما الذي استجد الآن ليجعلها تغيِّر موقفها؟ وهل يمكن أن يكون هذا الاختيار أحد

تداعيات صعود اليمين الصليبي المتطرف في أوروبا؟ وماذا لو كان الكاتب متعاطفًا مع خصوم السامية مثلًا هل سينال الجائزة؟ وإلى أي درجة تشفع الأعمال «التي غاصت في عمق التجربة البشرية، مدعومة ببراعة لغوية» مساندة الفاشية أو الوحشية في أعتى صورها؟

حيلة صماء!

لقد قوبل فوز هاندكه بموجة انتقاد ورفض واسعة، ومن العجيب أنه نفسه اندهش من الفوز، و قال عقب فوزه بالجائزة إن هذا القرار "شجاع جدًا من قبل الأكاديمية السويدية". وقد أعرب الناقد رون شارليز، في صحيفة الواشنطن بوست، عن استيائه من الجائزة قائلًا عن محاولات الأكاديمية استعادة الثقة في الجائزة: "هذه ليست الطريقة المثالية لإظهار الحكم الجيد أو لاستعادة الثقة، إنها مجرد حيلة صماء أخرى من قبل مجموعة من السويديين الذين يستحوذون على انتباه غير متناسب وغير مستحق من العالم." مشيرًا إلى أن الجائزة من المفترض أن يكون لها دور كبير في تسليط الضوء على الأدباء من الأماكن التي لا تحظى بالمتابعة الكافية على الرغم من وجود قامات أدبية بها، وكان من الممكن الاحتفاء بهم وبالتالي إعادة الثقة في المؤسسة. ونقل الموقع الالكتروني لهيئة الإذاعة البريطانية BBC ما كتبه وزير خارجية ألبانيا "جنت كاكاج" على تويتر: "إن الجائزة كانت مخزية وتم منحها لـ "منكر للإبادة الجماعية"، وما كتبه رئيس الوزراء الألباني "إدي راما": "لم أفكر

أبدًا في أنني سأشعر بالتقيؤ بسبب جائزة نوبل"، بينما قال رئيس كوسوفو "هاشم باتشي": "قرار جائزة نوبل جلب ألمًا هائلًا إلى عدد لا يحصى من الضحايا".

ومن الطريف أن جريدة الجارديان في عام 1999، نقلت وصف الكاتب البريطاني من أصل هندي سلمان رشدي لبيتر هاندكه بـ "معتوه العام الدولي" على خلفية "سلسلة من اعتذاراته العاطفية عن نظام الإبادة الجماعية الذي نفّذه سلوبودان ميلوسيفيتش"، وبعد الإعلان عن فوز هاندكه بنوبل، نشرت الصحيفة ذاتها تصريحا لرشدي قال فيه: "ليس لدي ما أضيفه اليوم ، لكنني سأبقى على ما قلته سابقًا".(يشير إلى تصريحه السابق عام 1999).

قال المؤلف هاري كونزرو: "هاندكه خيار مضطرب بالنسبة للجنة نوبل التي تحاول وضع الجائزة على المسار الصحيح بعد الفضائح الأخيرة، إنه كاتب جيد، يجمع بين البصيرة العظيمة والعمى الخلقي المروع".

طائفي يهين الإسلام

وحسنا فعل الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب الذي أصدر بيانا يرفض فيه منح جائزة نوبل فى الآداب لعام 2019 للكاتب اليميني والمتطرف النمساوي بيتر هاندكه.

تجدر الإشارة إلى أن الجوائز الأدبية بصفة عامة، المحلية والعالمية، صارت رهينة بأهدافها غير المعلنة من الجهات المانحة، وهو ما نراه في حصول بعض من لا يستحقون علي الجوائز المرموقة

والمتواضعة، ولعل القراء يذكرون ذلك الشاعر العربي الطائفي الذي ما زال يتقرب إلى مانحي نوبل بإهانة الإسلام وتجريمه على مدى تاريخه أملا في الحصول عليها، ولكنهم مازالوا ينتظرون منه المزيد! وقد صرح أحد الكتاب العرب ذات يوم أن من يعارض سياسة بلاده لن يحصل على الجائزة المرموقة التي تموّلها حكومته!

لقد صارت الجوائز الأدبية في كثير من أنواعها رشوة غير مقنّعة، لكسب الولاءات وتغيير الذمم، وتسويغ الوحشية!

***

9- تحديات الأدب الإسلامي

في يوم ما كنت عضوا في لجنة اختيار المعيدين بإحدى الكليات العربية. سألت الطالب الذي أمامي :

- هل قرأت رواية؟

فلزم الصمت. أعدت عليه السؤال بصيغة أخرى:

- ألم تقرأ قصة أدبية؟

فلم يرد. بدا لي الطالب مؤدبا ومهذبا، ولكن عدم رده جعلني أسأله:

- ألم يدرس لكم الدكتور فلان روايات س، ص، ل، من الكتّاب (ذكرت له أسماءهم)؟

قال:

- بلى!

قلت:

- هل ترى أن الرواية حرام؟

أجاب بصوت خافت:

- الشيخ سُئل، فسكت!

ابتسمت، ومازحته قائلا:

- إنك بذلك ستقطع أرزاق كثير من الناس.

ابتسم الفتى، وأدرك ما أعنيه، والفكرة أن هناك من لا يدرك أهمية الآداب والفنون في بناء الوجدان وتهذيب النفس وتوجيه العقل،

وتصفية الروح من الشوائب والأدران، وهناك من ترسبت في ذهنه صورة الآداب والفنون قرينا للابتذال والانحطاط الذي يطالعه ويشاهده ويسمعه في الوسائط المختلفة، ثم هنالك من يعتقد أن الآداب والفنون الإسلامية تأتي في ثياب الوعظ والترهيب والتخويف والجهامة والعبوس والجمود!

والحقيقة أن الآداب والفنون الإسلامية حين تأتي على يد شخصيات مؤمنة موهوبة، فإنها تجعل من "الفن" كما يقول المجاهد الكبير الراحل "على عزت بيجوفيتش": الوجه الآخر للدين.

الحديث عن التطبيقات

استغرق الحركةَ الإسلامية الحديثُ عن التنظير للأدب الإسلامي قرابة نصف قرن أو يزيد، ومازال الحديث حول طبيعة الأدب أو الفن الإسلامي يستغرق كثيرا من الوقت، بينما المطلوب هو الحديث عن التطبيقات التي يقدمها موهوبون في مختلف الفنون الأدبية: القصة القصيرة، الرواية، المسرحية، الشعر، الملحمة، الدراسة الأدبية والنقدية، التراجم... وآن الأوان للحديث عن التنفيذ. ثم الحديث عن الوسائط الناقلة لهذه الفنون الإسلامية وكيف يمكن أن تتسع دائرتها مع تشجيع الموهوبين.

فيما يخص الشعر تبدو الأمور طبيعية يسيرة، فأغلب أنصار الفكرة الإسلامية الأدبية ينظمون الشعر وراثة ويعشقونه دراسة، وقبوله مسألة تلقائية، ولكن التحفظ يظهر أمام الفنون السردية والدرامية، لارتباطها في الذهن العربي بالابتذال والعلاقات غير

المشروعة والتدني اللفظي والأسلوبي، ولكن تقديم النماذج الراقية كفيل بإلغاء التحفظ، وفتح الطريق أمام الفنون السردية والدرامية الجميلة، وينبغي أن أذكّر أن هذه الفنون كانت أول من عرّف القراء في أمتنا بمشكلات المسلمين خارج العالم العربي. من خلال ما كتبه الروائي الرائد الراحل نجيب الكيلاني وغيره. فضلا عن تعريفهم بتاريخهم وما فيه مواطن القوة وأماكن الضعف.

واقع المسلمين

لقد كتب الكيلاني مثلا أربعة روايات كانت وسيلة قوية ومفيدة في التعرف على واقع المسلمين المعاصر في بعض المناطق البعيدة، هي: ليالي تركستان، عذراء جاكارتا، الظل الأسود، عمالقة الشمال. وقد عالجت الأولى مأساة المسلمين في تركستان تحت الاحتلال الشيوعي الصيني، والثانية بؤس المسلمين في إندونيسيا في ظل النظام الشيوعي الاستبدادي بقيادة أحمد سوكارنو، والثالثة اضطهاد المسلمين في الحبشة في عهد الامبراطور المتعصب هيلاسلاسي، الرابعة محنة المسلمين والإسلام تحت الاستبداد الدموي الذي يوجّهه ويحرّكه المبشّرون في نيجيريا أكبر دولة مسلمة في إفريقية. وبسبب القمع والحصار الإعلامي الذي ساد فترة الستينيات من القرن الماضي، لم يعرف الناس شيئا عن واقع المسلمين المأساوي في تلك البلاد، وأذكر أن الدكتور محمد عاشور، رئيس تحرير "الاعتصام"- رحمه الله تعالى- قد اقترح على الدكتور الكيلاني- رحمه الله تعالى- أن يكتب عن واقع المسلمين في البلاد البعيدة، واستجاب

الكيلاني، فزوّده عاشور بالكتب والأبحاث والوثائق التي تساعد جغرافيّا وتاريخيّا واجتماعيّا على الكتابة، وظهرت الروايات الأربع واحدة بعد أخرى، وكان لها صدى طيب فقد نقلت إلى الناس في سياق جمالي ممتع مالم ينقله الإعلام الذي يصبّ في آذانهم وأعينهم أخبار العالم كله؛ عدا أخبار المسلمين المظلومين! وهو ما ساعد على تواصل العالم بهم والتعرف على ما يجري لهم.

سرايبفو حبيبتي

وحين شنّ الصليبيون الصرب بمساعدة الغرب وأميركا وكندا حرب الإبادة ضد مسلمي البوسنة والهرسك كتب الكيلاني مسرحيته "سراييفو حبيبتي" حيث عرض للمأساة بموهبة فنية بارعة..

الفن الأدبي في عصرنا ضرورة لتوصيل الأفكار والرؤى والتصورات الإسلامية من خلال المتعة الجمالية التي تؤثر في النفوس والقلوب، وقد عالجت ذلك تفصيلا في كتابي: "الأدب الإسلامي- الفكرة والتطبيق" الذي صدر عن دار النشر الدولي بالرياض 2007م.

والأمر يحتاج إلى تشجيع الموهوبين، ماديا ومعنويا، وخاصة الشباب الذي ينبغي توجيهه نحو ينابيع الثقافة الإسلامية الرفيعة والفن الجيد، وهنا يأتي دور مهم للغاية في هذا السياق تقوم به المسابقات الأدبية لاكتشاف المواهب الجديدة، ولعل رابطة الأدب الإسلامي قد أبلت بلاء حسنا يوم أعلنت عن بعض المسابقات في الرواية الإسلامية وأدب الطفل المسلم، وأتيح لي بحكم مشاركتي في التحكيم أن أطلع على كتابات عدد لا بأس به من الموهوبين، وقامت الرابطة

بنشر أعمال الفائزين في حينه، وكان ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح.

مبادرات ذاتية

بيد أن كل عمل إسلامي لا يقوم على نظام جماعي مؤسّسي، أو يرتبط بوجود شخص أو أشخاص يبذلون أقصى طاقتهم في بذل الجهد والعمل من أجل الفكرة، ينتهي أو يتراجع إذا منع هذا الشخص أو هؤلاء الأشخاص ظرف طارئ من مواصلة النشاط والعمل، وهو ما يستوجب أن تكون هناك مبادرات ذاتية على مستوى من يعنيهم أمر الآداب والفنون الإسلامية في بناء مؤسسات منظمة فعالة في كل مكان متاح، تعمل تلقائيا وفق نظام ومدونات تساعد على خدمة الأهداف وتتجدد باستمرار. وتخدم الفكرة النبيلة بالنشر والتعريف والتقويم، ولا تكتفي بالشكل والشعار والصورة.

حصار إقصائي

لقد سيطر الشيوعيون وأشباههم على الإعلام والمنافذ الثقافية والفنية والجوائز والمؤتمرات منذ الستينيات في القرن الماضي حتى اليوم، وفرضوا حصارا إقصائيا وتعتيما شاملا على كل قلم متوضئ، لصالح أتباعهم من ذوى المواهب الضحلة والإمكانات المحدودة، والتصور المعادي للإسلام. لا تقرأ خبرا أو تعريفا أو نشر كتاب أو دراسة عن أديب يؤمن برب العالمين وتصور الإسلام الناضج، إنهم يقتلونه بالحصار والصمت فيموت كمدا. بعد أن وثقوا وجودهم

الاستئصالي في مرافق النشر والدعاية والثقافة بصورة راسخة لأسباب عديدة ليس هنا مجال سردها.

وللأسف، فإن من يفترض فيهم الاهتمام بالفكرة الإسلامية في الآداب والفنون، سواء كانوا يعملون في الصحف أو الإعلام أو دور النشر التي ترفع الراية الإسلامية، يقفون موقفا متخاذلا ومتقاعسا ومؤلما في بعض الأحيان. بعضهم حريص على مصالحه الخاصة ويتصور أنه لو وقف إلى جانب كاتب موهوب او موهبة مبشرة سيوضع في حرج لدى رؤسائه الذين يكونون عادة في أفضل الأحوال من غير المتحمسين للفكرة الإسلامية، بينما الشيوعيون وأشباههم يدفعون بكل من يكتب من أتباعهم إلى الصدارة والدفاع عنه ولو كان ضعيف القدرات الفنية، ولو كان بينهم وبينه خلافات شخصية وما أكثرها.

التجارة والمصالح

أما دور النشر التي ترفع راية الإسلام فمعظمها يضع التجارة والربح والمصالح الخاصة في حسبانه قبل الهدف الرسالي المفترض، وبعضهم يأكل حقوق الكتاب البسيطة، وبعضهم لا يتورع عن الكذب في تعاملاته، مع الادعاء أن حركة البيع راكدة، وأن القراء لا يشترون، وأن الكتب لا توزع، بينما تتغير أحواله الشخصية باستمرار، فينتقل للسكني في الأحياء الراقية بدلا من الأحياء الشعبية، ويركب السيارات الفخمة بدلا من السيارات المتهالكة.. إنها صورة قبيحة ومشوهة للسلوك الذي يتم باسم الإسلام.

في البلاد غير الإسلامية تجد الناشرين الذين لا يرفعون راية ولا شعارا ولا يربون لحاهم ولا يرددون مصطلحات وأدعية إسلامية من طرف ألسنتهم، يتعاملون مع الكتّاب والمؤلّفين والمحرّرين بوضوح وصدق وإنجاز. يحددون موعدا معقولا لقبول العمل أو رفضه أو تعديله، وإذا قُبل يوقعون عقدا يذكرون فيه حقوق الأديب ومواعيد تسديدها الدقيقة، أما معظم الناشرين الذين يرفعون الراية الإسلامية عندنا، فأمرهم عجيب وغريب، ولديّ قصص وحكايات تصنع روايات طويلة، عن أكاذيبهم، وأكلهم حقوق الأدباء، ونفاقهم الرخيص. والسؤال: هل هؤلاء يمكن أن يخدموا الأدب الرسالي؟ أو يشجعوا الموهوبين والكتاب الجدد؟ لا أظن! وآمل ألا يغضب أحد من كلامي، فأن تكشف نواحي القصور عندك خير من أن يتحدث بها الآخرون المتربّصون، وفقا للأثر: رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي. وعلى رأي المثل: بيدي لا بيد عمرو!

تبقى ضرورة فكرة إنشاء دور نشر وصحف أو مواقع عن طريق الأسهم الصغيرة لتكوين شركات نشر وإعلام غير ربحية في الأماكن المتاحة، تتولى النشر والتعريف بالإنتاج الأدبي الإسلامي، وتشجيع الموهوبين وإصدار أعمالهم ومكافأتهم بما يحفزهم إلى الإنتاج والتجويد والنضج.

***

11 – استئصال الإسلام في الثقافة

لاريب أن الإسلام في معظم بلاد المسلمين يعاني من متاعب كثيرة، ومن تضييق شديد، ومن دعاية وتدليس تربط بينه وبين ممارسات العنف والعدوان، فضلا عن تهميشه أو استئصاله في كثير من جوانب الحياة، وإصرار النخب المثقفة أو التي يفترض أنها مثقفة على تشويه مفاهيمه وقيمه وتصوراته. وبمكن القول إن من يعلن أن الإسلام منهجه وإيمانه يظل متهما أمام النخب الثقافية التي ترفض الإسلام، أو تؤمن بمناهج غير إسلامية أو قيم غربية، وهذا الاتهام يشكل مناخا عاما رسخته بعض الحكومات التي ترى في الإسلام خطرا عليها، أو تضطر لمسايرة قوى كبرى تناهض الإسلام لأسباب شتى فتقضي على النبرة الإسلامية أو تضعفها. وتحل مكانها نظريات أخرى أو أفكارا تناقضها تراها ملائمة لنظام الدولة.. ومن ثم يأخذ التهميش والتضييق طابعا رسميا او شبه رسمي. من يتبنى الإسلام لا يتمكن من إصدار صحيفة أو إقامة منبر إعلامي أو ثقافي، ولا يستطيع أن يعبر عن أفكاره مثل الآخرين ممن يتبنون النظريات المادية والبشرية، ولا ترحب به صحيفة أو مجلة أو دار نشر رسمية أو تجارية.

فزاعة مخيفة

لقد استطاعت تقلبات السياسة في القرن الماضي أن تصنع من الإسلام فزّاعة مخيفة لدى كثير من النخب، فضلا عن العامة، وتفاقم الأمر بعد استبعاد تدريسه من المناهج المدرسية دراسة جادة وتحويله إلى مادة صورية لا تضاف إلى المجموع، فأهملها المدرسون والطلاب جميعا، ثم جاءت كورونا فأتاحت لبعض الحكومات أن تلغي امتحانها لأنها زائدة عن الحاجة!

بيد أن الأخطر من كل ذلك هو ربط الإسلام بالعنف والإرهاب والتطرف والتشدد من خلال بعض الممارسات الفردية أو المجموعات الشاذة فكريا، أو تلك التي تحركها الأجهزة الاستخبارية العالمية أو المحلية، فصار الإسلام في الذهن العام رمزا معاديا للإنسان، ورديفا للتخلف والقمع والوحشية. هكذا أرادوا له، في الوقت الذي يصورون فيه الغرب وثقافته بالنور والمحبة والإنسانية والتعاطف البشري. انعكست الصورة، وصار دين الرحمة في دائرة الاتهام، بينما منهج الوحشية الغربي الاستعماري الدموي في دائرة النور!!

مناسبة موسمية

هذا الوضع المقلوب ساعدت على إبقائه الصحافة وأجهزة الدعاية والنشر الرسمية والعلمانية والتجارية ومراكز التعليم التي تولى السيطرة عليها خصوم الإسلام والجاهلون به، فصار الإسلام على

صفحاتها وموجاتها وشاشاتها ومؤسساتها في أحسن الأحوال مجرد مناسبة موسمية تأتي في رمضان أو الحج أو المولد النبوي، وليس عقيدة وتشريعا ومنهجا وتصورا يحكم الإيمان والفكر والسلوك والعلاقات...

من خلال الوزارات المختصة في صناعة المخ القومي مثل الإعلام والثقافة والتعليم يغيب الحديث عن الإسلام بوصفه هوية الأمة، ومحور وجودها، ومنطلق مستقبلها، لتحل مكانه دعوات غريبة مثل علمنة الدولة، والفصل بين الدين والدنيا، والدولة المدنية في مواجهة ما يسمى بالدولة الدينية (وهي دولة لا يعرفها الإسلام، الذي لا علاقة له بالإكليروس أو الحرمان والغفران)، وبعث الانتماءات الشعوبية والقطرية ورموزها القديمة التي مضى عليها آلاف السنين بوصفها بديلا للهوية الإسلامية، وغير ذلك من دعوات.. في المقابل لا يتاح الرد على مثل هذه الدعوات والأفكار والنظريات، بل يتاح لها مزيد من التمدد والتكرار، من ذلك مثلا أن كاتبا طائفيا متعصبا يكتب منذ سنوات مئات المقالات في أبرز الصحف اليومية ترويجا للعلمانية التي يزعم أنها الطريق لتقدمنا وقوتنا، بينما لا يشير أدنى إشارة إلى افتقاد المواطن إلى حقوقه الأساسية في الحرية والأمن والمشاركة في قضايا بلاده بطريقة حقيقية، متجاهلا أن العرب منذ محمد على حتى اليوم لا تحكمهم الشريعة ولا الإسلام!

تنوير وظلامية!

ويزداد الأمر قتامة حين تنهض دور النشر الرسمية والعلمانية بنشر الكتب المعادية لدين الأمة أو تلك التي تتودّد الى الطائفية وتكرسها في المجتمع تحت مسمى التنوير والتجديد والتسامح، دون أن تتسامح بنشر الكتب التي تقدم جوهر الإسلام، وتكشف عن عطائه الإنساني الزاخر. إنها ترفض ما يكتب دفاعا عن الإسلام بحجة الرجعية والظلامية والأصولية ....إلى آخر هذه الأوصاف التي اخترعها الشيوعيون العرب وأشباههم، إرهابا لمن يحملون الهوية الإسلامية، وينافحون عنها.

لقد أضحى الحقل الثقافي أو الحياة الثقافية بعامة ترفض مصطلح الإسلام، وتزعم أنه مصطلح طائفي(!!) وهو دين الأمة كلها، وتنفي وجود أدب إسلامي، أو تصور إسلامي أو رؤية إسلامية وتربط ذلك ببعض الجماعات أو التنظيمات، متجاهلة أن هناك قرآنا كريما وسنة شريفة وسيرة نبوية وتاريخا إسلاميا.... غاية ما يسمح به هو "الإسلام منزوع الدسم"، أي الذي يتكلم في الفضائل المجردة والعبادات الفردية وفرائض الوضوء.. إنهم يريدون إسلاما بعيدا عن الحياة!

قد يتساءل بعضهم : وأين وسائط التعبير والنشر الإسلامية؟

الإجابة عن ذلك لا تسرّ. وسأخصّص لها صفحات أخرى إن شاء الله.

مسلم وشيوعي!

لكني معنيٌّ هنا بالإشارة إلى حدثين ثقافيين وقعا في شهرأكتوبر2020، يؤكدان ما سبق، ويتعلقان باثنين من الأدباء، أحدهما مسلم، والآخر شيوعي. وقد فاز كل منهما بجائزة إحدى الجهات الأدبية.

الأول كاتب من الوزن الثقيل، ويمثل قيمة عالية بموازين الأدب الرفيع، وقد فاز بجائزة رمزية لكنها ذات دلالة، ولكن مشكلته في مفهوم الشيوعيين وأشباههم من المهيمنين على الحياة الثقافية أنه "مسلم"، ويتبنى التصور الإسلامي الناضج الفائق. وقد قوبل فوزه في البداية بصمت مطبق، ثم تحول الصمت إلى حالة هستيرية يقودها الشيوعيون الحكوميون وأشباههم(أغلبهم ملحد أو طائفي، أو موال لثقافة الاستعمار)، من الهجوم الرخيص على شخص الفائز المسلم، وتقمصوا دور المخبر الغبيّ الذي كان يمثله إسماعيل يس في أفلامه الكوميدية، فقدموا بلاغات كيدية، وتناسوا أن الأجهزة المعنية تعلم دبة النملة في حياة كل من يحملون القلم!

الأخر صحفي كتاباته متواضعة، مُنح جائزة باسم أديب عراقي "سرياني" اشتهر بكتابة ما يُسمّى قصيدة النثر. وقالت لجنة التحكيم في بيان دورتها الثالثة: "مُنحت جائزة (....) للشعر وترجمته للعام 2020 إلى(....) وذلك لكون قصيدته الحرّة (غير العروضية، رغم أن بعضهم يدعوها قصيدة نثر، عن جهل أو تماهياً مع روح القطيع) (تأمل الأدب الرفيع في وصف المخالف!) قد أخذت إيقاعها الخاص،

لغة وموسيقى وبساطة، كتعبير عن ذائقة جديدة، ذائقة معبّرة عن دقائق الحياة اليومية، مبيّنة لنا المصائر البشرية وهي تهتزّ معلقة، بصوت خافت أقرب إلى الصمت أو التلاشي. قصيدة مترفعة عن السائد في لغة الشعر اليوم، وفي إطلالة تذكّرنا بإطلالة محمد الماغوط في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، مبتعداً عن طلب الشهرة والانتشار، مكتفياً بالظلّ الذي يقيه شمس الظهيرة (...)".

المتحقق عالميا؟؟!

وأشارت الأخبار التي ظلت تترى لأيام عديدة أن أمانة الجائزة تتكون من أصدقاء (الشاعر) العراقي الكبير في أوروبا وأمريكا، ويتزامن الإعلان عنها سنوياً مع ذكرى رحيله، وتتولى "دار الجمل" التغطية الإعلامية للجائزة وحفل تسليمها. وتمنح جائزة تقدر بأضعاف ما منح للفائز المسلم، ولكنهم يستقلونها(!) وتم وصف الفائز بالشاعر المحترم المتحقق عالميا المتجاهل في الداخل!

لم يتوقف الأمر عند التهنئة بالفوز، واستقلال القيمة المادية للجائزة، وإغداق الأوصاف الكبيرة على الفائز الذي لا أظن أحدا يحفظ له سطرا أو فقرة مما كتبه، أو يحتفظ في ذاكرته بفكرة أو معنى مما نشره! فقد هاجت الشلة الاستئصالية المهيمنة على الدعاية والصحافة وهاجمت هيئة النشر الرسمية واتهمتها ضمنيا بالتقصير في حق الفائز (الملائكي!)، وتساءلت في صيغة مظلومية للفائز: هل تنشر هيئة الكتاب أعمال الشاعر فلان؟ كما نقلت عن أحد الشيوعيين الحكوميين سؤالا تهكميا ساخرا: ماذا يضير الهيئة

العامة للكتاب أو قصور الثقافة أن تنشر دواوين (فلان) ليقرأها الناس والعالم؟ وتكتمل حبكة التهكم والسخرية من عقول الناس بافتراض أن المذكور لا يحبذ نشر أعماله(!)، وقد توجهت الدعاية الديماجوجية بالسؤال إلى الدكتور رئيس الهيئة الرسمية للنشر، الذى أفاد بأن الهيئة ترحب بشدة (!!) بنشر دواوين الشاعر الذي وصف أعماله بأنها مهمة، وفى حال موافقته (؟؟!) فإن الهيئة سوف تسعى لإصدارها في أقرب وقت. وتوالت الدعاية بالحديث عن حفاوة المثقفين الشيوعيين (الحكوميين!) المهيمنين على الحياة الثقافية بالجائزة ورأوا فيها انتصارا للشعر ولتجربة الفائز اللافتة.

الضوء الطليق!

وقال شيوعي حكومي يدعي الانتساب إلى الشعر والترجمة: "إن إطلاق جائزة تحمل اسم الشاعر العراقي الراحل، هي خطوة مهمة لصالح الشعر العربي عموما ولصالح الترجمة" (كيف؟ لم يقل لنا).

وتغزل بعضهم في الفائز فوصفه بالضوء الطليق المتباعد، المتعفف، المستغني، المنعزل، المتعالي.. لكن قصيدته هي الأكثر حضورا وتأثيرا.. في كثير من القصائد يسخر من صورة أمه أو صورة أبيه، يقسو أحيانا.. لكن جلباب أمه المتسخ بالعرق والتراب، يمسك به باكيا، وهى تخرج غاضبة من البيت.. هو أعمق صورة للحب(!!).

ثم انتفضت صحيفة أدبية أسبوعية لتجعل الفائز موضوعا رئيسا، وتضع صورته بحجم الغلاف وتخصص صفحات عديدة لكلامه، وكلام آخرين يتغزلون في إبداعه(!) وما يسمى شعره، ويصلون به إلى السماء!

إن من تحمل الجائزة اسمه لا يقول الشعر بمعناه المعروف نقديا وتاريخيا، فهو يكتب كلاما نثريا قد يكون مفهوما ومقبولا، لكنه لا يعرف طريقه إلى الموسيقى والقافية وتوليد الصورة المبتكرة. اقرأ مثلا قوله:

"وإذا ما صرخنا،

إذا ما أفصحنا عن أصواتنا الأخرى

فحتى الملائكة

ستخفي رؤوسها تحت أجنحتها الثقيلة

لئلا تسمع الصرخة."

وشايات مكتوبة

غير مسموح لك أن تعبر عن إسلامك في الحياة الثقافية ولو كنت في موهبة محمد إقبال أو مصطفى صادق الرافعي. الإسلام محرّم عليك لأنه يعني في مفاهيم الشيوعيين تلامذة الصهيوني هنري كوريل والعلمانيين والمرتزقة في الحياة الثقافية أن تقع تحت طائلة اتهام يقودك إلى جهنم الاستبداد والقمع والتغييب. كيف تستطيع أن تقول أنا كاتب مسلم أو أديب مسلم والاستئصاليون الشيوعيون وأشباههم من المسيطرين على ثقافتنا يسمون الإسلام بالإظلام

والظلام والجمود والرجعية والطائفية والأصولية والسلفية والتطرف والتشدد والتعصب والإرهاب.. أبسط الأشياء أن يقدموا ضدك بلاغات مكتوبة بأنك تنتمي إلى داعش أو القاعدة، أو هذه الجماعة أو تلك. ونسوا – كما قلت من قبل- أمرا بسيطا، وهو أن السلطات في بلادنا العربية تعلم دبة النملة في حياة كل من يحمل القلم، ولكن شهوة الاستئصال تقودهم إلى الإرهاب الفكري ومهنة المخبرين الأغبياء ليظلوا على حجر الأنظمة، وحلب بقرتها الثقافية.

***

12- الخذلان الإسلامي للثقافة

كما أشرت من قبل، فمن الصعب القول إن المناخ العام يمنح الثقافة الإسلامية والتعبير عنها حرية الحركة الطبيعية والتواصل التلقائي والحوار مع الآخرين، فهي ثقافة متهمة حتى تثبت العكس. كل انتماء إسلامي متهم، بدليل ومن غير دليل، أنه ضد الحياة والأحياء! هكذا يقول الاستئصاليون ومثقفو الحكومات ووسائل دعايتها. ليست أمام المثقفين المسلمين مندوحة من القبول بالعمل في إطار هامشي يتجنب جوهر الأمور، وأساسياتها وقضاياها المؤثرة في معظم الأحيان، وهو ما انعكس على حركتهم ونشاطهم الفكري والعلمي في المجال العام وداخل أروقة الجامعات والمراكز البحثية، بل إن الحركات الإسلامية تأثرت بذلك حين نحّت جانبا أو أهملت أهم العناصر الثقافية وفي مقدمتها الآداب والفنون، واكتفت بالجانب الخطابيّ المباشر.

بعض السلفيين لا يؤمنون بشيء اسمه الأدب أو الفن. أحدهم حين تولي صحيفة تصدرها جماعته أصدر أول قراراته بحذف صفحة الثقافة وصفحة الأدب لأنه لا يؤمن بهما ويرى فيهما نقيضا للإسلام (؟!) مع أن المعادين للإسلام وخصومه يستغلون الآداب والفنون بعامة لنشر أفكارهم وتصوراتهم وتوصيلها إلى جمهور عريض

بطريقة ناعمة. هم يعلمون جيدا أن الكلمة الفنية غير المباشرة لها تأثير يفوق ما يبذلونه على مستويات أخرى مباشرة!

شطب المسلمين

سلوك بعض المسلمين في القطيعة مع الفنون والآداب، يمنح الاستئصاليين المعادين للإسلام، المهيمنين على الحياة الثقافية، فرصة الزعم أن الإسلام يحارب الأدب والثقافة، وأنه لا يوجد أدباء مسلمون ولا مثقفون إسلاميون أو غير معادين للإسلام، وفي سبيل دعم هذا الزعم يحرصون على حذف الأدباء أو المثقفين المتعاطفين مع التصور الإسلامي من قائمة الأخبار والدراسات والأبحاث الأدبية والعلمية، فلا تبرز مثلا أسماء مصطفي صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات ومحمود محمد شاكر ومحمود تيمور ومحمد محمد حسين وعبد الحميد جودة السحار ومحمد عبد الحليم عبدالله ومحمد سعيد العريان وأحمد محرم ومحمود حسن إسماعيل وعلى أحمد باكثير وسيد قطب وأنور الجندي، ونجيب الكيلاني وعبده بدوي ومحمد رجب البيومي.... وأمثالهم.

روح الأمة

إن الفريق الاستئصالي المهيمن على الحياة الثقافية، ينظر إلى هؤلاء وأمثالهم بازدراء، ويراهم ظلاميين ورجعيين ومتخلفين، ولا يمثلون تطورا ولا تجديدا (أو حداثة بمفهومهم)، ويتجاهل أن هؤلاء وأمثالهم أقرب إلى روح الأمة، وأكثر قراءة وانتشارا بين القراء، في

الوقت الذي لا يبقى له بحكم عدائه للدين والأخلاق قاعدة ذات حضور سواء من ناحية القراءة أو التأثير.

إن الكلمة الفنية محايدة، والذكي الماهر هو الذي يغذيها بتصوراته وأفكاره، وما أروع تصورات الإسلام وقيمه ومثله لو وجدت الكاتب أو الفنان الذي يمنحها الحياة المؤثرة. هل قرأتم ما كتبه محمد إقبال وشاهدتم مسلسل أرطغرل على سبيل المثال؟..

مناخ الوشاية

لقد أشاع الفريق الاستئصالي المهيمن مناخ التربّص والوشاية تجاه الثقافة الإسلامية في كثير من وسائط التعبير ومراكز البحث ودور النشر. رأينا مثلا في بعض البلاد العربية من يتهم أساتذة الجامعات بالإرهاب لأنهم تعرضوا لدراسة بعض الحركات الإسلامية أو المفكرين الإسلاميين، وسمعنا من يوقف رسائل علمية، أو يرفضها بعد مناقشتها والتوصية بمنحها، لأنها تعرضت لقضايا أو أشخاص لا تريد السلطة أن يتطرق إليها أحد، مما أكد ما يسمى "رهاب الإسلام" أو فوبيا الإسلام، في داخل الأمة الإسلامية، وليس خارجها! كان المأمول أن يكون العالم الإسلامي أكثر ترحيبا وحفاوة بالثقافة الإسلامية بوصفها تعبيرا عن هويته وقيمه، ولكنه للأسف تحول إلى طارد للثقافة الإسلامية، ومعاد لها في بعض الأماكن بسبب هيمنة الاستئصاليين على الحياة الثقافية..

يجب أن نعترف أن هؤلاء الاستئصاليين، في المجال الثقافي والمعرفي، أكثر تنظيما وأفضل دعاية وترويجا من الإسلاميين، فقد استطاعوا عن طريق نشاطهم الذي لا يفتر، وإيمانهم بقضيتهم الباطلة ،وعدم التورّع عن استخدام منهج "الغاية تبرر الوسيلة" أن يتسلقوا ويصعدوا ويتحكموا، فقد كسبوا ثقة الأنظمة المعادية للإسلام أو التي لا يعنيها أمره. لقد هيمنوا على مقدرات الثقافة، ولم يضيعوا وقتا في تمكين أتباعهم وأنصارهم من كل أمورها ومفاصلها، مع أن الشعوب المسلمة هي التي تنفق عليها، من عرق جبينها وعصارة كدحها وجهدها. والمفارقة أنهم لا يجدون غضاضة في الحديث عن ديمقراطية الثقافة! كيف تستقيم الديمقراطية مع الاستئصال؟

رعاية أمنية!

تراهم مقدمين في كل المجالات: الشعر والقصة والرواية والمسرح والبحث الأدبي والدرس النقدي، وظاهرين في مواضع السيطرة على وسائط التعبير والنشر والصحافة والطباعة والسينما والندوات والمحاضرات والجوائز والمهرجانات والمؤتمرات التي يرعاها الأمن (في عام 1968 انعقد بمدينة الزقازيق أول مؤتمر لأدباء الأقاليم تحت رعاية وزير الداخلية حينئذ، وكان المشاركون في أكثريتهم الساحقة من الماركسيين وأشباههم الذين يزعمون دائما أنهم ضد السلطة، وأنهم ينحازون إلى الشعب والفقراء ملح الأرض!).

قارن ذلك بفترة قصيرة تمكن فيها الإسلاميون بعد ثورة يناير من الوصول إلى سدة الحكم والتشريع، حيث تركوا الأمور الثقافية

وغيرها لهؤلاء الاستئصاليين عملا بالتسامح والطيبة الزائدة عن الحد. وكانت القيادات التي عينت في الصحافة والإعلام والثقافة مرتعشة الأيدي وهي توافق على نشر مقال أو كتاب أو عقد مؤتمر خوفا من هؤلاء الاستئصاليين، لدرجة أن من حضروا لقاء الرئيس مرسي رحمه الله مع المثقفين، لم يكن بينهم مثقف إسلامي واحد، فالذين جهزوا للقاء وأعدوا الأسماء لم يكن بينهم وبين الإسلام (عمار!)، كانوا للأسف من الاستئصاليين!، والمفارقة أن بعض من شاركوا في اللقاء من الشيوعيين والمرتزقة خرجوا بعده ينتقدونه ويزعمون بطولة لم تحدث حول مواجهة الرئيس الطيب المتسامح! ناهيك أن وزيرا للثقافة عينه الإسلاميون لم يستطع أن يصل إلى مكتبه الرسمي، وراح يمارس عمله المحاصر من جانب الاستئصاليين في مكان آخر!!

وسائط غير متاحة

إن عملية الفرز الفكري التي اخترعها الاستئصاليون حرمت الأكثرية الإسلامية من حق المشاركة عبر الوسائط المملوكة للشعب المسلم، بل امتد الأمر إلى الوسائط التجارية ودور النشر الخاصة، حيث وضع هؤلاء الاستئصاليون أقدامهم في هيئات التحرير أو الفحص أو القراءة لإجازة الأعمال المسموح بنشرها أو المرفوضة.

لم يتبق في الساحة الثقافية من وسائط غير ما يسمى الصحف أو المجلات الخاصة ودور النشر الإسلامية، وهذه للأسف تواجه بعض المصاعب والمواقف السلبية التي تعود إلى أصحابها أكثر مما تعود إلى

غيرهم. وسوف أذكر طرفا من هذه المواقف والمصاعب، مع استثناء نفر قليل يفهم المعنى الرسالي لإذاعة الفكرة الإسلامية، ويملك المنهج الخلقي في التعامل مع أطرافها.

واقع مختلف

فالمفترض أن من يحمل صفة (إسلامي) يحمل رسالة، وله غاية وهدف، وكلها تتمثل في نشر الثقافة الإسلامية ومحتواها الإنساني، وزيادة الوعي بها من خلال فهم الماضي والحاضر على ضوء الإسلام، وجذب الأنصار والأتباع، ولكن الواقع شيء آخر..

أولا- كل عمل تجاري يتغيّا الربح والكسب، وهذا أمر طبعي، فالعمل عادة يكون من أجل مقابل يتعيش به صاحبه، مالم يكن صاحبه موسرا وينفق في سبيل الله. والأمر بالنسبة لبعض الناشرين والعاملين تحت اللافتة الإسلامية يُفترض أنه ربح ورسالة، جانبٌ للدنيا وآخر للآخرة، ولكن أكثرهم جعلوه خالصا للتجارة والكسب والغبن والهضم، بنوعيّة ما ينشرون أو بأكل حقوق المؤلفين والعاملين، أو مخالفة العقود والالتزامات، وفي الوقت نفسه يتخلقون بأخلاق لا تليق بمسلم فضلا عن ناشر رسالي، مثل: الكذب، وعدم الوفاء بالوعد، والتدليس، والنفاق، والنرجسية، والاستهانة بأقدار المؤلفين والكتاب.. وفي جعبتي الكثير، مما لا أصرّح به ولكن أشير إليه ليعلم الناس أن هزائم الإسلاميين تأتي من داخلهم في أحيان كثيرة. لقد أحصى بعضهم الجماعات الإسلامية فوجد عددها في مصر مثلا يصل إلى 72جماعة! مع أن النبي- صلى الله عليه وسلم- حين هاجر إلى المدينة وحّد المهاجرين والأنصار والسادة والعبيد في بوتقة واحدة ليعملوا معا.

ثانيا- افتقاد العمل الإسلامي للتنظيم الذي يحرك تجارة النشر نحو الأفضل. في دور النشر الأجنبية التي لا تدين بالإسلام، يتعاملون وفقا لخطط مستقبلية، ولغة محددة، وفلسفة واضحة. يعرفون جيدا ماذا ينشرون، ومتى، وكيف؟ إذا تقدم كاتب إليهم بكتاب أو طلبوا من آخر كتابا، فإنهم في وقت قصير محدد؛ يتخذون القرار بنشره أو طلب تعديله أو رفضه في وضوح، وإلى جانب ذلك يوقّعون عقد النشر موضحا فيه حقوق الكاتب: المستحقات التي تسدد قبل البدء في الطبع، ومواعيد تسديد الدفعات الأخرى، والنسخ المهداة للمؤلف، والأخرى المخصصة للدعاية والإعلام. على الجانب الإسلامي تمضي الأمور عشوائيا. لا يعرف المؤلف رأسه من رجليه، يسمع لغة غامضة، إذا حرروا عقدا فهو إجبار من الناشر وإذعان من المؤلف، يمنحهم حق القوامة عليه! لا يحصل المسكين على عائد في معظم الأحوال أمام الشكوى الكاذبة الدائمة من عدم التوزيع، و"وقف الحال"، في الوقت الذي ينتقل فيه الناشرون الشاكون (الإسلاميون) من القاع إلى القمة المادية، فيركبون سيارات فاخرة يجددونها كل عام بنوع (أفخر)، ومن السكن الشعبي إلى السكن البرجوازي، أو يقيمون عمائر فارهة! لقد وصل الأمر ببعضهم إلى حرمان المؤلف من نسخ الهدايا القليلة، ويتم ذلك في ظل كلمات وأدعية وعبارات إسلامية محفوظة لا تتسق مع السلوك والفكر على أرض الواقع. لقد تناسوا منهج الإسلام الواضح "الدين المعاملة"، بينما يتذكره الأجانب غير المسلمين!

العمل الجماعي

ثالثا- افتقاد روح العمل الجماعي، ولعل أبسط مثال على ذلك عملية "التوزيع". فالناشرون يعتمدون الآن على المعارض المحلية والخارجية بالدرجة الأولى، ومن خلالها يحققون أرباحهم، في حين أن غاية الناشر (الإسلامي) تحقيق الربح وخدمة الرسالة على المستوى المحلي أساسا، ولكنه يظل قابعا بكتبه داخل مخازنه، أو مكتبة معزولة عن الجمهور القارئ العريض في الأقاليم والمدن الرئيسية. لا يفكرون في تأسيس شركة توزيع تجوب البلاد بسياراتها، وتوزع على المكتبات ونقاط بيع الصحف، أو يستغلون السكة الحديد وتكاليفها أرخص ماديا في عمليات التوزيع. كانت هناك بعض المحاولات المحدودة، ولكنها لم تحقق المراد في عملية التوزيع. صحيح توجد شركات تابعة للمؤسسات الصحفية الكبرى، ولكنها تتقاضى مقابلا باهظا، فضلا عن أن بعضها يهمل توزيع الكتب التي لا تصدر عن المؤسسة التابعة لها.

رابعا- هناك مؤسسات ثقافية إسلامية في بعض البلاد العربية تسهم في عملية النشر، وتنمية الثقافة الإسلامية في جانب الآداب والفنون، ولكنها للأسف تعتمد على وجود أفراد بأعيانهم، فإذا تعرضوا لعائق ما، فإن المؤسسة تتوقف عن العمل أو تكاد، وهو ما يعني أن تربية العناصر النشطة في هذا المجال ضرورة لتنهض بدورها عندما يطلب منها، وأظن ذلك يتطلب روحا تطوعية تؤمن بالبذل والعطاء احتسابا لله.

ولعل بعض الناس يغضب من كلماتي، وأنا أقدر ذلك، وهو ما جعلني أستثني من الصورة العامة بعض المخلصين، ولكن علينا أن ننقي الصفحة الإسلامية من البقع الملوثة، والقصور المرفوض، واللغة الغامضة التي لا تتسق مع منهج الإسلام. وقبل ذلك وبعده نواجه الاستئصال الشرس الذي لا يرقب في المسلمين إلاّ ولا ذمة.

***

13 – الإسلام والفن الروائي

قال الروائي الإيطالي الأشهر "البرتو مورافيا" في حيث صحفي للأهرام لدى زيارته إلى مصر قبل عقود، إن القصص القرآني منبع عظيم للفن القصصي الإنساني. ثم أخبر بعد سنوات من هذا اللقاء للكاتب الليبي عبد الرحمن شلقم (وزير سابق، ومندوب سابق أيضا في الأمم المتحدة) أنه تعلم من الأدب العربي وأفاد منه، وأشاد بألف ليلة وليلة. (الشرق الأوسط، العدد [15138]، 16 رمضان 1441 هـ= 09 مايو 2020 م).

مورافيا، الكاتب الذي تبيع رواياته كميات ضخمة من النسخ في إيطاليا (تصل مبيعات الرواية الواحدة هناك نصف مليون نسخة عدا ما يترجم ويوزع في الخارج)، ينبهر بالقصص القرآني وألف ليلة، ويرى أنه أمام ما يوجه إليه من انتقادات في رواياته؛ أقل جرأة من الليالي في التناول.

طائفية مقيتة

يشغلني في مقولات مورافيا، أنه لم يصف أدبنا العربي الإسلامي بالطائفي كما يحلو لبعض أبناء جلدتنا، حين يرون أن إعادة أدبنا إلى طريقه الطبيعي الإسلامي بأنها عملية تدْيين طائفية مقيتة.

كان ألبرتو مورافيا شاعراً وفيلسوفاً، كما يصفه الأستاذ شلقم، اختار الرواية وعاءً لعصارة فكره، باللغة الإيطالية التي ولدت من

رحم ضربات الزمان وانبثاق عصر النهضة، وفي حروفها وكلماتها يسكن الدين والشعر والفلسفة والأغاني وأنفاس الحب. هي لغة وطنية حبيسة أرضها لا يتكلم بها شعب آخر على الأرض سوى الإيطاليين. من دانتي اليجييري وميكيافلي والشاعر دانوزيو والفيلسوف القسيس توما الإكويني، ترعرعت لغة الإبداع الشامل. تطورت من اللاتينية إلى الفولجارية، ثم اللغة الإيطالية الحديثة.

كان شلقم قد حمل وساما منحه له القذافي، فقبله مورافيا لأنه من ليبيا التي يحمل أهلها مشاعر إنسانية، قائلا له: أنا أقبل هذه الهدية لسبب واحد، أنها من بلاد عاش فيها أخي أياماً مفعمة بالحب والوفاء رغم الحرب (قُتل أخوه في ليبيا)، أرجوك لا تعلن عن هذا الوسام، فأنا لا أتفق مع القذافي في شيء، لكنني أحب كل ما هو ليبي! كما أدان الاحتلال الإيطالي لليبيا الذي وصفه بالفاشي، وندد بما فعله موسوليني وجراسياني بالشعب الليبي من مذابح وإبادة واعتقال في معسكرات جماعية. هذا الأديب غير المسلم الذي يعبر عن إنسانيته لدرجة رفض ممارسات القذافي الذي يهديه وساما، وإدانة قادة بلاده الغزاة، يعجب بالقصص القرآني والأدب العربي، ولا يرى فيهما طائفية مقيتة، ولا عنصرية دينية. لقد تحدث عن الإسلام والعرب وحضارتهم وفكرهم الذي ألهم الدنيا وأسهم في تحريك النهضة الأوروبية.. ويضيف شلقم بأن الأسى ظهر على وجه الروائي العجوز، وقال: ليت موسوليني عرف الحب، وعَلِمَ أن القلوب أقوى من المدافع، لم يكتشف ما في العرب من شحنات

للحب، مثلما كان في عقولهم توقد الفكر والفلسفة. اعتَقَدَ أن العرب كتل من الهمج ذهب بقواته ليسيطر عليهم، ويفرض أفكاره الفاشية. ويذكر شلقم أنه زار مورافيا مرات كثيرة، وكان أغلب حديثه عن غرناطة وبغداد، أما طرابلس فلا تغيب أبداً. (انظر أيضا ما كتبه عيسى الناعوري حول مورافيا في كتابه "رحلة إلى إيطاليا 1960 – 1961" صدر 2004).

لم يكن الإسلام عنصريا أو طائفيا في يوم من الأيام، فالقرآن الكريم علمنا أن بني آدم كلهم على اختلاف أعراقهم وألوانهم وانتماءاتهم لهم التكريم جميعا والأفضلية على كثير من المخلوقات، يقول تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء:70). والمفاضلة بين البشر في الإسلام لا تتكئ علي الأصل أو الحسب أو النسب أو العرق أو اللون أو الطائفة أو المذهب، إنما تقوم على التقوى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"(الحجرات: 13).

إنسانية الإسلام

هناك نصوص كثيرة ومواقف عديدة تؤكد على إنسانية الإسلام التي تفوق ما يتحدث به الغرب الاستعماري وكتابه ومفكروه وشعراؤه وصنائعه في بلادنا التعيسة، ولعل أصدق مقولة أدركت قيمة الإسلام في معالجة العنصرية هي مقولة مالكوم إكس (1925 - 1965) السياسي الأميركي وداعية حقوق الإنسان: "إن أمريكا فى حاجة إلى فهم الإسلام لأنه الدين الوحيد الذى يملك حل مشكلات العنصرية فيها"-

يتصور بعض الناس أن إعادة الأدب العربي إلى مساره الطبيعي ، يعني تدْيينه، أي تحويله إلى مواعظ وخطب منبرية وهذا ما لم يقل به أحد من النقاد أو الدارسين، ومع ما تحتاجه الخطب والمواعظ من موهبة وفن، فإن الرواية تحتاج إلى موهبة ساطعة وخبرة عميقة ووعي فني على مستوى عال وتصور فكري ناضج.

التصور الإسلامي

وينبغي أن نذكر أن الفنون كلها تصدر عن تصوّر ما للكون والحياة والإنسان، تؤكد ذلك الآداب البشرية منذ طفولة التاريخ، فكل حضارة ينبئ أدبها عن عقيدة معينة، تأمل أدب المصريين القدماء والفرس والإغريق والرومان والعرب قبل الإسلام والأوربيين في العصور المظلمة وعصر النهضة حتى العصر الحالي تجد وراء النصوص عقيدة ما، سماوية أو وضعية، ولعل معتقدات الماركسيين، والوجوديين والعدميين، خير الأمثلة بحكم قربها الزمني فهي تؤكد على ارتكاز الأدب على التصور الماركسي أو الوجودي أو العدمي. وأظن أن من واجب الأديب المسلم أن يرتكز على التصور الإسلامي في أدبه، ليأتي إنتاجه فوّاحا بعبير الإنسانية التي تظلل الناس جميعا.

لقد عرف أدبنا العربي في بعض العصور خروجا على التصور الإسلامي، وكان هذا الخروج استثناء في سياق عام، عاد أصحابه إلى روح الإسلام ونظرته الرحبة، أو اعترفوا بأنهم خارجون..

الأثر الديني

من يقرأ الأدب الغربي قديما وحديثا في عمومه يجد حرصا على وجود الأثر الديني، وفي روايات أعلام الفن الروائي الأوربي وجود لافت لمفردات الدين وتصوراته، لدرجة أن فيكتور هوجو جعل روايته الضخمة "أحدب نوتردام" تدور أحداثها وتتحرك شخصياتها من داخل الكنيسة الشهيرة أو ترتبط بها، ومن يقرأ تشيخوف وديستويفسكي وجوجول وجوركي وتولستوي وتورجينيف وموباسان وبلزاك وديكنز وتوماس هاردي والأخوات برونتي وسومرست موم وعشرات غيرهم من عباقرة القصة والرواية في الغرب؛ سيجد حضورا لا فتا للتصوّر المسيحي حتى لو لم يؤمن به الكاتب، بل إننا في عصرنا الحاضر الذي يوصف بأن كتّابه لا يلقون بالا للدين، نرى كاتبا شهيرا مثل البرازيلي باولو كويهلو، الذي يكتب بالبرتغالية، ينقش آيات الإنجيل في مقدمات فصول روايته (المنحرفة)، فضلا عن حضور آيات أخرى في ثنايا الرواية وحوارتها، ولا تخلو واحدة من رواياته من التصور الديني، ولا يستطيع أحد من نقادنا أن يتهمه بأنه يقوم بتديين الأدب! وبالمناسبة فهو منبهر بالخيال العربي في السرد ويستدعيه أحيانا إعجابا به.

فرض النظرية

حين هيمن الشيوعيون وأشباههم في الستينيات وما بعدها حتى اليوم على الحياة الأدبية والثقافية والفنية والدعائية والتعليمية في بعض البلاد العربية، فرضوا نظريتهم الماركسية الأدبية، وأحلوها محل الدين أو أكثر، وتراجع الأدب والثقافة والفن والإعلام والتعليم، بفعل الإقصاء والاستئصال والالتزام الماركسي المعادي للإسلام الذي يرفض المشاركة مع الآخرين وخاصة من الإسلاميين، فلم نر أدبا ساطعا أو فنا مضيئا أو ثقافة رفيعة أو إعلاما حقيقيا أو تعليما يشرف الأوطان. في العصر الذي سبق 1952 عرفت الأمة وكان معظمها تحت الاحتلال الغربي مساحة واسعة من حرية التعبير والتفكير والحوار، وكان الأدب في أغلبه يصدر عن تصور إسلامي، ومعظم الإنتاج الأدبي يمتاح من مشكاة الإسلام وإن لم يعلن عن ذلك، حتى الأدباء العرب غير المسلمين تأثروا بالتصوّر الإسلامي، وقد خصّصتُ لشعرائهم فصلا طويلا في كتابي "محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر العربي الحديث، ط2، دار النشر الدولي الرياض،1429هـ = 2009م ". واستطاع الأدباء دون مساعدة من الدولة أو تضييق عليهم؛ أن ينشئوا صحفا ومجلات أدبية راقية تتحدث بها الركبان، ويكتب فيها أصحاب اللسان العربي من الهند إلى موريتانيا، وكانت توزع بكميات هائلة، كان هناك على سبيل المثال: البلاغ ،الجهاد، أبولو، الرسالة، الثقافة، الرواية، مجلتي، الكاتب المصري، المجلة الجديدة، الراوي الجديد، الفكر الجديد،

روايات الأسبوع، النديم القصصي، الفجر الجديد، الجامعة، وغيرها، وكان يتجاور فيها المختلفون فكرا ورؤية ويتحاورون حوارا ثقافيا وأدبيا وعلميا يثمر أفكارا ورؤى وتصورات يقتنع بها القراء، كما شهدت ميلاد جيل الرواد في الرواية والقصة، وعرف الناس من خلالها محمد حسين هيكل، وطه حسين، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير، وإبراهيم المازني، ومحمد لطفي جمعة، ومحمود كامل، ويحيى حقي، وعبد الحميد جوة السحار، وإبراهيم المصري ومحمد سعيد العريان ومحمد عبد الحليم عبد الله، ومحمد فريد أبو حديد، وإحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي، ويوسف جوهر...، وغيرهم.

ترحيب وإشادة

وفي أدبنا المعاصر نجد الأدباء غير المسلمين ومن تزيّا منهم برداء ماركسي أو علماني، يعيش مع التصور الديني المسيحي في ثنايا أعماله، ويجد ترحيبا وإشادة من نقادنا، حتى لوكان بعضهم يبدي تعصبا وبغضا للإسلام. الجيل السابق من أول يوسف الشاروني ويوسف جوهر ولويس عوض حتى غالي شكري وإدوار الخراط ورءوف مسعد عبروا عن انتمائهم غير الإسلامي ولم يتهمهم أحد بتديين الأدب أو القصة أو الرواية.

في الجيل الحالي من هؤلاء يبدو التعصب واضحا وصريحا وفجا، خذ على سبيل المثال أحدهم يدعي "صبحي موسى"، كتب بعض الروايات ولم يكتف بعرض التصور غير الإسلامي، بل هاجم الإسلام وشوهه

من خلال الذريعة القبيحة التي تسمى "الإرهاب"، ومن رواياته، صمت الكهنة، حمامة بيضاء، المؤلف، أساطير رجل الثلاثاء، الموريسكى الأخير، وصلاة خاصة، التي يوجه فيها- كما يقول، في الأهرام2019/2/2- التحية لما يسمى الثقافة القبطية!

المفارقة أن روايات هذا الشخص تلقى ترحيبا كبيرا، وحفاوة بالغة في الصحف العريقة والحديثة، وأجهزة الدعاية الرسمية والخاصة، والحظائر الثقافية داخل مصر وخارجها، لدرجة أن ناقدا حظائريا كبيرا خصص له ثلاث مقالات طويلة على مدى ثلاثة أسابيع في "الأهرام" ليشيد به وبرواية "أساطير رجل الثلاثاء"(هل في الاسم دلالة ما غير الدلالة المباشرة في الرواية؟)، حيث يكيل فيها الاتهامات لأحد المسلمين بزعم أنه إرهابي، وبالطبع لا نجد أبدا في المقابل مسلما صالحا يحمل المشاعر الإنسانية، أو يكره العنف والدم انطلاقا من عقيدته.

لم يقل أحد لهذا الشخص المتعصب إنك تُديّن الأدب، ولكن الحساسية الفائقة تشتعل عند ذكر الإسلام أو وصف الإسلامي، فلا تسامح، ولا تقبل للآخر، ولا إيمان بحقه في الاعتقاد والاختلاف والتعبير!

أما الأدب اليهودي في فلسطين المحتلة، فحدث ولا حرج، فأشعارهم ورواياتهم ومسرحياتهم تكاد تكون شروحا للتوراة والتلمود نصوصا وتطبيقا، وقد فاز يوسف عجنون (شموئيل) بجائزة نوبل تقديرا لروحه الدينية اليهودية.

لسنا ضد أحد حين يعبر عن معتقداته، أو من خلال تصوراته الدينية والأيديولوجية، بل نتسامح معه إذا أساء إلى المسلمين، بعد أن نبين له خطأ موقفه، ولكن يفترض فيه أن يحترم غيره، وحقه في التعبير انطلاقا من معتقداته وتصوراته. ولا يتهمه بأن ذلك ينقص من إنسانيته أو إنسانية الأدب.

السرد العربي

هناك من يرى أن الفن الروائي أو الفنون السردية عموما، هي فنون أوروبية. وهذا قد يكون صحيحا في بعض الجوانب وخاصة التقاليد الفنية الحديثة، ولكن أدبنا العربي عرف السرد بطريقة عربية مميزة قبل ظهور طرق السرد الغربية الحديثة. فقد كان الرواة في الجاهلية يقصون عن أيام العرب وحروبهم القبلية فيما بينهم أو مع غيرهم من الفرس والروم، وعند ما جاء الإسلام حمل القرآن الكريم قصص الأنبياء وغيرهم (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ" (يوسف: 3)، وكذلك الحديث الذي حمل عشرات القصص التي كانت تأتي للتمثيل والشرح والتوضيح، وازدهرت مهمة الرواة بمجيء الإسلام حيث كانوا يجلسون في المساجد لخدمة الدعوة الدينية أولا، ثم خدمة السياسة وخاصة في عهد معاوية وما بعده، ونقل العرب بعد الفتوح إلى لغتهم قصصا من بلاد أخرى الفرس والروم الهنود والمصريين وغيرهم من الأمم القديمة. كما رأينا مثلا في "كليلة ودمنة"، واتسع خيالهم وتطور فن القص فأنشأوا المقامات، وألفوا

الحكايات وحفلت كتب التراث الموسوعية في الأدب بألوان عديدة من القصص الديني والاجتماعي والخيالي، وفي العصور الوسيطة ازدهر الأدب الشعبي، وظهر الكتاب القصصي الأشهر "ألف ليلة وليلة"، الذي كانت ترجمته إلى اللغات الأوربية فتحا كبيرا بالنسبة لفن السرد عندهم. وصار ملهما لكثير من الأوربيين وغيرهم، وقد فصلت الحديث عن تطور فن القصة في كتابي "تطور النثر العربي الحديث، دار النشر الدولي، الرياض، 1429 هـ= 2008م".

نحن في حاجة إلى دعم الفن الروائي الذي ينطلق من التصور الإسلامي، لتزداد الإنسانية إنسانية وتسامحا ورحمة.

***

14 - الدراما التركية وتأثيرها

لاريب أن الدراما التلفزيونية صارت تستحوذ على اهتمام عدد كبير من المشاهدين في العالم، وخاصة في المنطقة العربية والإسلامية. فالدراما تجذب المشاهد الذي يرى فيها واقعه الصعب والمؤلم الذي يعيشه، أو الواقع الذي يتمنى أن يعيشه، وتتحقق فيه آماله وأحلامه الجميلة التي يفتقدها.

كانت هناك دراما عربية في عقدي السبعينيات والثمانينيات تشغل الناس، ويتابعونها بشيء من الاهتمام، ويجدون فيها تسلية وتعزية وقتلا لوقت الفراغ!

ويبدو أن تجّار المسلسلات لم يعودوا يهتمون بالمضمون الذي يبني ويصوّب، ويغيّر ويطوّر، فاستسهلوا تقديم موضوعات سطحية، واكتفوا بتقديم ممثلات وممثلين، تعتمد صورتهم الخارجية على العري والابتذال واللغة الهابطة والحوار المتدني، دون مراعاة لقيم المجتمع وتقاليده، وأخلاقه وسلوكياته.

وهنا ظهرت في العقدين الأخيرين مسلسلات أميركية وهندية ولاتينية وتركية تستقطب اهتمام المشاهدين العرب والمسلمين، لاعتمادها على الدبلجة، أي تركيب أصوات عربية على ألسنة الممثلين والممثلات، فتسهل على الأميين متابعة الأحداث الدرامية وتطورها، فضلا عن موضوعاتها المثيرة، وصور الممثلين والممثلات وطريقة الحياة المختلفة.

الدراما التركية

استأثرت الدراما التركية الرومانتيكية بمتابعة قطاعات عريضة من العرب خاصة، وكانت شخصيات مثل نور ومهند، وفاطمة وكريم، وليلى وقيس ونحوها في مقدمة اهتمام المشاهدين، وكانت أماكن التصوير الخلابة والشوارع النظيفة، ووسائل المواصلات من سيارات فخمة، وقطارات سريعة، وسفن أنيقة، ومياه البسفور والدردنيل الفضية اللامعة ، وملابس الشخصيات وجمالها وأناقتها، ولغة الغزل المفتقدة بين الأزواج في بلادنا، ومناظر البيوت والقصور من الداخل وما فيها من تحف وزخارف ومقاعد وأسرّة وغرف الطعام والاستقبال والنوم والحدائق الخضراء اليانعة، ودرجة التحرر إلى حد الانحلال، تعجب قطاعات كبيرة من المشاهدين، لدرجة أن بعض النساء في البلاد العربية تأثرن إلى درجة كبيرة بما يحدث في هذه المسلسلات، وتغيرت حياتهن إلى حالة سلبية رصدتها بعض الدراسات العلمية، بحكم أنهن يجدن فارقا بين واقع يعشنه ولا يرضين عنه ، وخيال مصور في الدراما يتمنين الانتقال إليه والعيش فيه.

قلب المعادلة

المفارقة أن المسلسلات التركية التاريخية التي عرضت في السنوات الأخيرة قلبت المعادلة، وحققت أهدافا إسلامية واجتماعية وسياسية، وهو ما دلت عليه نسبة المشاهدة العالية من جميع

الفئات العمرية التي تعشق البطولة والجهاد، وتنحاز إلى الرؤية الإسلامية الإيمانية، والقيم الخلقية التي عاش عليها المسلمون منذ صدر الدعوة.

لقد وقفت معظم القنوات العربية من المسلسلات التاريخية التركية موقفا سلبيا. لم تهتم هذه القنوات بعرضها أو تقديمها للمشاهد وتنافست في تقديم المسلسلات العربية والهندية السطحية، أو إعادة مسلسلات العشق الممنوع ونحوها لتغطي على الدراما التاريخية، وتسحب المشاهدين إلى دراما العشق والغرام الرومانتيكية، ولكن النتيجة لم تكن كما أحب أصحاب هذه القنوات.

نسب المشاهدة

فقد تكرر عرض المسلسلات التاريخية التركية، وزاد الإقبال عليها، وقد بدا اهتمام الجهات المنتجة بالترويج لها من خلال القناة التركية العربية، وتخصيص ميزانيات كبيرة لبثها عبر وسائط مختلفة.

لوحظ أن مسلسلا مثل "قيامة أرطغرل"، حصل على نسب عالية جدا من المشاهدة في البلاد العربية والإسلامية، مع أن القنوات التي عرضته كانت محدودة، وتتعرض للتشويش باستمرار، وذكرت الأخبار أن اليمنيين وخاصة جنود الشرعية كانوا يحرصون على مشاهدة المسلسل في إجازاتهم الأسبوعية في بعض المقاهي التي تعرضه عن طريق الفيديو مقابل مبالغ يدفعونها.

لقد عالجت المسلسلات التاريخية فترات زمنية متعددة. كل مسلسل اختص بفترة معينة تناولها بشخصياتها وحوادثها وأماكنها وأزمانها، وطرح الصراع الذي دار فيها من جوانبه المختلفة، وكان التصور الإسلامي هو الحاكم الذي أدار حركة الأحداث وتناولها، فأظهر طبيعة التسامح الإسلامي في علاقة المسلم مع الآخر غير المسلم، والعدل كما يأمر به الدين، وسياق التعاون والجهاد لرد الظلم والدفاع عن المظلومين.

قيام الدولة وسقوطها

فمسلسل أرطغرل، في أجزائه الخمسة يصور قيام الدولة العثمانية في القرون الوسطى ،ويشرح الجهود التي بذلها سليمان شاه وابنه أرطغرل وحفيده عثمان والمتاعب والصعوبات التي واجهت إنشاءها، والحروب التي خاضوها ضد المغول والصليبيين والمتآمرين من داخل العالم الإسلامي.

ومسلسل السلطان عبد الحميد، يصور فترة حكم آخر سلطان عثماني قوي قبل سقوط الخلافة الإسلامية، وما جرى فيها من مؤامرات لاغتصاب فلسطين بمعرفة اليهود الذين دبروا كثيرا من المؤامرات والمكائد لإسقاط الخلافة عبر الأفكار الشيوعية والماسونية والصهيونية والتحالف مع الأرمن والإنجليز والفرنسيين والروس، وتحريض الأقليات في بلغاريا واليونان والصرب وغيرها للتآمر والتمرد وتخريب البلاد، وإغراء أصحاب النفوس الضعيفة بخيانة دولتهم وإسلامهم.

ومسلسل كوت العمارة، ويعبر عن بطولات خارقة وتضحيات هائلة قامت بها قوات عثمانية ضد دول الغرب الاستعمارية التي عملت على تفتيت الأمة الإسلامية وتمزيق العالم العربي، والضحك على بعض القادة العرب بوعود زائفة لهدم الخلافة. وقد بذل العثمانيون في سبيل ذلك ما يملكون مع فارق القوى بين الغزاة الإنجليز، والمجاهدين المسلمين.

بصفة عامة فإن المسلسلات التاريخية التركية جاءت في صيغة فنية عالية من حيث البناء القصصي، وبلورة الشخصيات، وصياغة التشويق، وتصميم المكان، والملابس. هناك بالطبع بعض الملاحظات النقدية الفنية على المسلسلات التاريخية، ولكنها تأتي في إطار الاجتهاد بين المخرج والمؤلف، وتظل في إطار الرؤية الواحدة وهي التصور الإسلامي الذي افتقدته الدراما إلى حد كبير في منطقة العالم الإسلامي قبل ظهور الدراما التاريخية التركية.

الهوية الإسلامية

ويمكن إجمال أسباب الاهتمام بالدراما التاريخية في تركيا وإقبال المشاهدين المسلمين عليها في النقاط التالية:

أولا- استرداد الهوية التركية الإسلامية التي افتقدها الأتراك على مدى قرن من الزمان تقريبا، تم فيه سلخ الأتراك عن جذورهم، وقطع صلتهم بدينهم ولغتهم العربية وقيمهم الإسلامية وتاريخهم العريق، وتحريم العمامة، وإلزامهم بقانون القيافة الذي يحتم على

الرجال ارتداء القبعة الغربية، ولبس الكرافتة، وفرض كشف النساء رءوسهن وارتداء الفساتين على الطريقة الأوربية.
والدراما التركية تعيد الحنين في نفوس الأمة جميعا إلى القيم الإسلامية والتراث التركي، والأمجاد القديمة التي سجلها الأتراك في صفحات من نور دفاعا عن الإسلام والمسلمين.
ثانيا- تقدم هذه المسلسلات صورة طبيعية للإسلام ونقائه بعيدا عن التفسيرات الطائفية والعنصرية والاستبدادية والشائهة التي يحاول بعضهم الترويج لها.
فالإسلام في هذه المسلسلات يتعامل مع الناس جميعا على اختلاف معتقداتهم وألوانهم وأعراقهم بالعدل والرحمة، ولا يعادي أحدا إلا إذا رفع السلاح ضده، والجهاد في الإسلام عمل إنساني لرفع الظلم عن المظلومين، وليس تلذّذاً بالقتل، كما يقول المخرج محمد با يزيد، وليس حباً للحرب كما تفعل بعض التنظيمات التي تنتسب إلى الإسلام ظلما وزورا.
وتقدم هذه المسلسلات المرأة في دور مهم وفعال إلى جانب الرجل بدءا من البيت إلى ميدان القتال، والمشاركة بالرأي وقيادة القبيلة في غيبة زعيمها، وهي محتشمة تراعي العادات والتقاليد.

حلم المشاهد

ثالثا- تصحيح التاريخ الذي زوّره الغرب وخدامه العرب والأتراك لتشويه الدولة العثمانية وتحميلها خطايا العالم، وتبرز الدور المهم الذي قامت به هذه الدولة على مدى قرون عديدة في حماية العالم

من شرور قوى الظلام الاستعمارية، في اجتياح الأمة الإسلامية والإغارة عليها، والاستيلاء على أراضيها وثرواتها. فقد حاربوا المغول والغزاة الأوربيين، وحموا الثغور والمدن الإسلامية من المحيط إلى الخليج، وقاموا بتأمين الحرمين الشريفين وخدمتهما. وعندما سقطت الخلافة، اكتشف القوميون والطائفيون أن الغزاة الغربيين كانوا كاذبين في وعودهم وادعاءاتهم!

رابعا- لاريب أن الدراما التاريخية التركية عزفت على وتر حساس لدى المشاهد العربي بالذات. فقد رأى الحلم الذي يريده لنفسه مرسوما على شاشة أرطغرل والسلطان عبدالحميد وكوت العمارة وغيرها. رأى أمجادا يتمناها، وأحلاما يتمنى تحقيقها على عكس (العشق الممنوع، ونور ومهند..) . رأى انتصارات غابت عنه في الواقع الراهن وهزائم تطارده في الصحو والنوم، وجاءت بطولات أرطغرل وباشوات عبد الحميد والأسكوبلي تعوّضه عن واقع مهزوم مريض مليء بالدم والدموع. وتقول له إن تحقيق البطولات ممكن إذا توفرت الشروط.

خامسا- لاريب أن هذه المسلسلات لها غاية سياسية، فهي تشير إلى واقع سياسي راهن لا يختلف كثيرا عن الواقع السياسي الذي كان. الهزيمة الداخلية، والخيانة ، والتسيب، والعمالة ولو بدون علم، والعدو يعمل بلا هوادة ولا كلل لسحق الإسلام والأمة الإسلامية.

ويمكن للأمة وللأتراك كما يقول بعض الباحثين أن يستعيدوا الأمجاد والنصر إذا تمسكوا بالإسلام وقيمه ونماذجه الصالحة، يرى

المخرج السوري، محمد بايزيد، أن الدراما "تسبق المجتمع لتسحبه معها فكرياً وأخلاقياً نحو المكان الذي تريده، وهو ما تمّ بشكل كبير في الولايات المتحدة وحالياً في تركيا".

***

15 - وداع أرطغرل.. واستقبال عثمان

بالحلقة الخمسين بعد المائة التي أذيعت أواخر مايو 2019م، انتهي مسلسل قيامة أرطغرل الذي ملأ الفضائيات وشغل الناس على مدى خمس سنوات، وشاهده نحو ثلاثة مليارات نسمة في خمس وثمانين دولة على امتداد العالم، وحمل رسائل مهمة إلى العالم الإسلامي وغير الإسلامي.

في البداية طالع المشاهدون المسلسل وهم يظنونه مسلسلا تاريخيا عاديا سيملّونه بعد حلقتين أو ثلاث، ولكنهم استمرّوا معه خمسة مواسم، يشاهدون في كل موسم ثلاثين حلقة، كل حلقة في ساعتين أو أكثر، ويصمدون أمام الشاشات أو اليوتيوب ليتابعوا الأحداث الشائقة، والأداء المبهر، واللغة الجديدة التي افتقدوها في مسلسلات الأشاوس والنشامى حيث تمتلئ بالغثّ والمبتذل، والشتائم والسطحية والعري، والنماذج الشائهة، والتقليد الأعمى لمسلسلات الغرب.. ثم وهو الأخطر تشويه الإسلام وتنفير المشاهدين منه، وتقديمه في صورة مقزّزة ومتوحشة ومعادية للإنسانية والفطرة البشرية!

تشويه التاريخ

أيضا فقد درج العلمانيون الأتراك على تقديم مسلسلات لا علاقة لها بتركيا العثمانية الإسلامية. إنها تقدم تركيا التغريب ورفض الإسلام واللغة العربية والاندماج في المجتمع الغربي بسلبياته وموبقاته، دون التفات إلى إيجابياته ومحاسنه.

وللأسف فقد قدموا التاريخ العثماني مشوّها، وبائسا، ومتخلّفا كما حدث بالنسبة لمسلسل السلطان سليمان القانوني الذي عرض تحت اسم "القرن العظيم"، وعرفه العرب باسم "حريم السلطان"، فقد صوّروا السلطان سليمان في صورة الخليفة المشغول بالنساء، والغارق في الملذات والشهوات، وذهب خيال كاتبة المسلسل العلمانية إلى تشويه الرجل الذي قاد أقوى دولة في زمنها، وتسيّد العالم أرضا وبحرا، فتحول لدى العلمانيين إلى صورة مبتذلة يحتفي بها الإعلام العربي الفاسد الموجه، وصار العرب وغيرهم ينشغلون بتاريخ مزيف صنعه معادون للإسلام، موالون للغرب.

لقد ذكّر أردوغان ذات يوم حكام أوربة وعلى رأسهم الرئيس الفرنسي "نيكولاي ساركوزي" في مناسبة اجتماع لهم؛ بقيمة السلطان سليمان القانوني، حين أهداهم رسالة استغاثة وطلب العون بعثها ملك فرنسا "فرنسيس الأول" للسلطان سليمان عندما وقع أسيراً في يد الإسبان، فطمأنه السلطان ووعده بنجدته وخاطبه قائلا: "أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين، أنا متوّج الملوك، ظلّ الله في الأرضيين، أنا سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر.. "، ولكن الكاتبة العلمانية التي كتبت حريم السلطان لم تعلم بذلك وجعلت سليمان القانوني زير نساء!

الرد العملي

لقد استاء الأتراك الطيبون من تشويه سلطانهم القوي العادل الذي لقب بالقانوني، وقدموا عشرات الشكاوي لمن يعنيهم الأمر، وعبّر أردوغان عن غضبه من المسلسل وصانعيه، ولكن الرد العملي كان تقديم التاريخ العثماني في صورته الحقيقية الأصيلة، التي شوهها المغرضون والمعادون للوحدة الإسلامية. فرأينا مجموعة من المسلسلات الطويلة المهمة التي صاغت التاريخ العثماني في عصور مختلفة: أرطغرل، السلطان عبد الحميد، كوت العمارة، ... من خلال قصص فنية شائقة، وإخراج متقن، وتمثيل فائق ، وتصوير رائع.

حظي مسلسل أرطغرل باهتمام كبير لأنه وجه رسالة متعددة الأغراض إلى الداخل التركي والعالم الإسلامي. لعل أهمها: مقاومة الغزاة المعتدين مهما كانت قوتهم إيمانا بالحق وطلبا للشهادة، تطهير الصفوف من الخونة والمنافقين، الوقوف بجانب المظلومين وإقامة العدل. العمل على وحدة المسلمين والتعاون فيما بينهم. وكل ذلك في إطار القيم الإسلامية التي ترفض الظلم والبغي والعدوان، ولا تفرط في الحقوق والواجبات، وتسعى لتقديم الرحمة والعطف، ومنح المخالفين بل الأعداء فرصة التحول إلى الصواب من خلال التعرف على الإسلام وقواعده وقيمه من خلال الوفاء بالعهود والالتزام بالاتفاقيات والمعاهدات، وعدم التمييز بين رعاياهم أيا كانت معتقداتهم ومذاهبهم. وكان هناك دائما عالم الدين الذي يشرح قواعد الإسلام والسيرة النبوية ويحث على بناء العقل الوجدان

بالعلم والمعرفة وتقوية الشعور بحب الله والإخلاص والشهادة، ويأتي في سياق فني يلتحم بالعمل الفني دون افتعال أو تكلف.

مجتمع متكامل

مع أن أرطغرل كان بطل المسلسل، فإنه يمكن القول إن فريق التمثيل حقق نوعا من البطولة الجماعية التي تصور مجتمعا إسلاميا متكاملا يتحرك فيه بشر يصيبون ويخطئون، ويحظى المصيب بالتقدير، والمخطئ بالتصويب، والنفوس البشرية في المسلسل، ليست ملائكية، أو محصنة، ولكنها تبدع وتقوى غالبا، وتضعف وتتهاوى أحيانا فيقومها المجتمع أو يقف إلى جانبها حتى تعود سيرتها الأولى. إن المجتمع الذي تمثله القبيلة التي ينتسب إليها أرطغرل (القايي)، يتشارك المسرات والأحزان، ويرتفع بجهاده، ويسقط بفعل العدوان عليه والغدر به من جانب الخونة أو المعتدين، ولكنه ينهض مرة أخرى، ويقاوم، ويستعيد مكانته من جديد.

لقد عالج المسلسل الخيانات- وما أكثرها في زماننا بين العرب والمسلمين- وتخطيط الأعداء من الصليبيين والمغول، وشراء الخونة والجواسيس من أقرب المقربين إلى القادة، وهؤلاء كانوا يتسببون عادة في انهيارات وانكسارات تعصف بالمسلمين، وتقهرهم، ومع أن المخ المعادي كان يعمل ويخطط بذكاء وينفق الذهب بسخاء على العملاء، فإن أرطغرل وصحبه، كانوا يواجهون مخططات الأعداء بالعمل والعقل والتدبير المحكم لاصطياد الخونة وكشفهم ومعاقبتهم. بعض السذج يرون أن معاقبة الخونة تحريض من المسلسل على الشقاق وهز أركان المجتمع، وهدم الدولة!

دور المرأة

كانت المرأة في مجتمع (القايي) مثالا للمرأة الفاعلة المنتجة المقاتلة التي تشارك بالرأي والفكر، بل القيادة في بعض الأحيان ،وهي قيادة تتسم بالحكمة والحنكة والصواب.

وهي في كل ذلك محتشمة غير مبتذلة، وللأسف فإن بعض ضيقي الأفق يتهمون المرأة في المسلسل بالسفور والتبرج وعدم الالتزام، ويرتبون على ذلك تحريم مشاهدته، وقد توالت فتاوى عديدة ذات هوى لتحريم المسلسل، معتمدة على أسانيد واهية، كأن يتهمونه بالدعوة إلى الصوفية الباطنية، أو اختلاق وقائع لم تحدث، و هذه أحكام مغرضة تداري العجز الذي تعيشه بعض الجهات التي أخفقت في تقديم أعمال محترمة تشد الجماهير، وتغزوها بالفكر الناضج والتصورات الظافرة.

سورة الفتح

أيا كانت المآخذ الفنية القليلة على المسلسل، فهي لا تقلل من قيمته التي تجعله تحفة فنية ناعمة صارت- كما وصفها بعضهم- حديث العرب والعجم. وأثرت في كثير من غير المسلمين وجعلتهم يغيرون الصورة السلبية المرسومة في أذهانهم عن الإسلام.

ويكفي المسلسل إيجابية أن المشاهد شنفت أذنيه وأمتعت عينيه آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ومنظر الصلوات الفردية وصلاة الجماعة وخطبة الجمعة، وتلاوة القرآن في أكثر من مكان

بتلقائية وعفوية، وهو ما تخلو منه مسلسلات بني جلدتنا الهابطة.. بل إن ختام المسلسل عرف تلاوة جميلة لجزء من سورة الفتح يعبر عن انتصار المسلمين حين يعتصمون بحبل الله، ويعملون بدأب وإصرار حد الشهادة لنصرة الدين الحنيف، وإقامة دولة العدل ونصرة المظلوم.

لقد ودع المشاهدون أرطغرل ليستقبلوا بعد شهور مسلسلا مكملا، هو قيامة عثمان، ابن أرطغرل حيث تنهض دولة بني عثمان قوية شابة في السنة ذاتها التي سقطت فيها بغداد تحت أقدام المغول (656هـ)، ويمارس التاريخ لعبته في الوقوف إلى جانب من يأخذون بالأسباب مع الإيمان، والتخلي عن أهل الأنانية، والتفرق والتشرذم، والولاء لغير الله!

لقد استحق كاتب المسلسل ومخرجه إشادة من المشاهدين والنقاد ومحبي الإسلام، وهو الذي بذل جهدا كبيرا في تقديم عمل يشهد له يوم القيامة، خدمة للإسلام والمسلمين.

***

16 - أدب الصورة، ومعركة الوعي

مسلسل المؤسس عثمان في جوهره يلح على فكرة الخوف من العدو، ويبرز شجاعة المؤمن الذي يستعد ويتدرب ويخطط ويفكر وينتصر أو ينعم بالشهادة،

مسلسل خالد بن الوليد، يجلّي بطولاته وانتصاراته وإسلامه وإخلاصه لربه ودينه وأمته.

لا ريب أن أدب الصورة الناجح يحقق خدمة عظمى في معركة الوعي ، وإيقاظ الأمة باستعادة أمجادها وقيمها الإسلامية الرفيعة. كانت الدراما التركية في صورتها العاطفية المتأثرة بالقيم الغربية المادية الحسية تحقق انتشارا دعائيا كبيرا على مستوى العالم منذ سنوات، وتستقطب عددا هائلا من المشاهدين وخاصة الشباب في العالم العربي، ومع أن المسلسلات العاطفية لقيت انتقادا كبيرا، بحكم ما تقدمه من علاقات متحررة، وتشويه لصورة المسلمين الفاتحين والخلفاء من بني عثمان، فقد جذبت بعض المنتجين وصناع الدراما العربية لتقليدها والسير على منوالها لدرجة استنساخ بعض المسلسلات طبق الأصل مثلما حدث مع مسلسل اسمه "عروس بيروت"، الذي قلّد مسلسل "عروس اسطنبول". كان تأثير المسلسلات التركية العاطفية على الشباب العربي كبيرا، لدرجة أغرتهم بزيارة الأماكن التي يتم فيها التصوير، والاستمتاع السياحي

بروعتها وخضرتها وجمالها. وتحولت أسماء الممثلين والممثلات والأماكن التركية إلى مفردات على ألسنة شبابنا وفتياتنا، بل أضحى حلم كل منهم أن يكون له زوج أو زوجة تشبه واحدا من أبطال الدراما التركية العاطفية!

مخاطبة العقل

اختلف الأمر حين ظهرت المسلسلات التي تعتمد على التاريخ وروح الإسلام، فقد حدث انقلاب كبير، حوّل المسألة من قصص الحب والغرام والجمال والوسامة، والملابس المثيرة، والعلاقات المتحررة بين الرجل والمرأة، والسيارات الفارهة والحدائق الغناء والقصور الفاخرة إلى مجال مخاطبة العقل وصراع القيم وبناء الأمم، ومواجهة الغزاة المعتدين. وكشف مؤامرات الأعداء التاريخيين، ومخططاتهم في تأصيل الخيانة، وتفكيك الدول وإثارة الفتن، وسرقة الثروات والمستقبل والأمل. وأنتج أدب الصورة الجديد مسلسلات "أرطغرل" و"السلطان عبدالحميد"، و" كوت العمارة"، وغيرها، التي شهدت إقبالا منقطع النظير في شتى أنحاء العالم، لدرجة أن بعض المشاهدين من عقائد أخرى دخل الإسلام ونطق بالشهادتين تأثرا بالمواقف الإسلامية الإنسانية التي عبر عنها هذا الأدب في فنية رائعة وجمالية عظيمة.

لا شك أن وقوف الدولة التركية على أعلى مستوى ودعمها لبعض هذه الأعمال كان من وراء ظهورها في أفضل صورة أدبية درامية!

الانتقال من أجواء الحب والغرام إلى مجالات الصراع القيمي والقتال بين الحق والباطل، كان مثيرا للغاية، فقد ظن بعضهم أن الدراما الجادة لا جمهور لها، ولن تحظى بالاهتمام من المشاهدين، ولكن النتيجة كانت على العكس، فقد حقق أدب الصورة الجادة مشاهدة عالية ليس في العالم العربي فحسب بل في العالم أجمع، وخاصة في أميركا اللاتينية، التي دفعت مادورو رئيس فنزويلا إلى القول، إن مسلسل أرطغرل سيدفعه إلى دخول الإسلام! ولم يكن مادورو مبالغا فقد أعلنت بعض الأسر هناك- كما سبقت الإشارة- إسلامها على يد بعض ممثلي المسلسل نتيجة تأثرها بما رأته من أخلاق الإسلام وقيمه وتشريعاته التي تجلت في العدل والرحمة والتكافل والإنسانية والدفاع عن المظلومين وغيرها.

الذهب والمناصب

مسلسل أرطغرل ركز في ثناياه على فكرة توحيد الأمة الإسلامية من نقطة الصفر كما يقال. من القبائل، إلى الإمارات، إلى الدولة. والقضاء على الخونة وضعاف النفوس الذين يؤثر فيهم الذهب وحب المناصب والزعامة والركون إلى الرفاهية والاستسلام. وهي أمور تعيشها الأمة الإسلامية اليوم بصورة وأخرى، ومع شغف الجمهور العربي بمتابعة أدب الصورة من خلال الدراما التركية المتكئة على قيم الإسلام والتاريخ، فإن الشاشات العربية الرسمية وقفت منها

موقفا معاديا باستثناء شاشة واحدة، واجتهدت بعض القنوات الخاصة في تقديم الحلقات، واستطاعت الشبكة الضوئية عبر اليوتيوب أن توفر فرصة المشاهدة لكثير من الشباب.

لاريب أن أدب الصورة ذا المضمون التاريخي الإسلامي ضغط على الوجع الذي يستشعره بعضهم، فوقفوا منها موقفا غير ودّي، وهذا ما دفعهم إلى إنتاج مسلسلات موازية تفسر التاريخ تفسيرا شعوبيا عنصريا، يكرس الفرقة ويشعل البغضاء والخلاف بين أمة الإسلام، ويعتمد على تزوير التاريخ أو في أحسن الأحوال يروج لروايات غير موثوقة، وهي أعمال لم تنجح فنيا ولا جماهيريا، مع أنها تكلفت كثيرا من الأموال والدعاية.

الكيان المنتصر

بعد أن استغرق عرض مسلسل أرطغرل خمسة مواسم أو خمس سنوات، ورأى الناس من خلاله كيف نمت فكرة الكيان الإسلامي القوي المنتصر الذي تشكّله مجموعة قبائل مؤمنة بالإسلام إيمانا حقيقيا، حيث تستقر في أرض أكثر خصوبة وعطاء، ويتجاوز معظم أبطال المسلسل سن الشباب والكهولة، وينهض عثمان بن أرطغرل (مؤسس الدولة العثمانية) ليكمل مسيرة أبيه، ويواصل رحلة التوحيد والجهاد والبناء وإقامة العدالة؛ في طريق صعب مليء بالأعداء والخصوم والخونة والصراعات الداخلية..

ظهر في المسلسل الجديد (المؤسس عثمان) بحكم تتابع الأجيال بعض أفراد المسلسل الأول (أرطغرل). منهم المحارب الشهير بامسي

الذي يقاتل بسيفين، والمحارب عبد الرحمن(حارس أرطغرل)، والسيدة سيلجان (زوجة شقيقه جوندوجو) بالإضافة إلى الشقيق ديندار، والابن غوندوز، وشقيقه عثمان. ظهر هؤلاء في أوضاع تتناسب مع أعمارهم، فضلا عن الشخصيات التي استجدت من الجيل الجديد بفعل تغيّر الزمان والمحاربين والسادة. ومن أبرزها شخصية أديب على- عالم الدين البديل لابن العربي، رمز العقل والعلم والحكمة، وابنته بالا، رمز المرأة المسلمة التي تحمل رسالة الإسلام بالمفهوم الصحيح المتسامح، وقد تزوجها عثمان وتوازي شخصية أمه السلطانة حليمة التي أعانت زوجها أرطغرل على طريق الجهاد. هناك فريق القلعة البيزنطية الصليبية بخبثه ومؤامراته ومخططاته، وأفراده متعصبون مخادعون ماكرون تقودهم الأميرة الصليبية صوفيا التي تلعب دورا خطيرا بالاغتيالات والفتن وتجنيد الخونة وتكره المسلمين أو من تسميهم الأتراك كراهية شديدة، ولكن غايتها طرد الأتراك من وطنهم وخداعهم باتفاقيات زائفة، وتصفية المحاربين الأوغوز، مستغلة طموح بعضهم للزعامة، والمهادنة والاسترخاء والدعة، والفرح بما تدره التجارة في الأسواق وصناعة السجاد، وصراع ديندار مع عثمان ابن أخيه على الزعامة والقيادة. ولكنها تنهزم في النهاية وتقتل على يد عثمان الذي كان يتصدى لمكرها وتحالفاتها وألاعيبها، ويستولي عل قلعتها، ويرفع عليها الراية الإسلامية. لقد استطاع عثمان أن يقضي على القائد المغولي الذي هدد المنطقة، وأتباعه من المغول والخونة، أو عشاق الذهب، ولقي

في سبيل ذلك متاعب وواجه انكسارات، ولكنه لم يستسلم ابدا، كلما وقع نهض، وأفاد من أسباب الوقوع كي لا تتكرر، ولم يكن السيف وحده سبيله، بل كان العقل والتفكير والتخطيط والقلب الشجاع قبل السيف وبعده دائما، ولهذا انتصر وصدح الأذان في كل مكان حرّره.

المرأة المشرقة

يعالج المسلسل في ثناياه، جانب الصراع المتعلق بالمرأة داخل القبيلة، ويكشف عن صورة مشرقة للمرأة التي تساعد على الجهاد وترميم العلاقات بالنصيحة والحكمة والتوعية، وأخرى معتمة تؤجج الصراعات بالغيرة والحماقة والأنانية. بالا بنت أديب على نموذج للأولى، وزهرة زوج ديندار نموذج للأخرى، أما صوفيا المرأة الصليبية فهي نموذج للمرأة الأفعى.

المؤمن الشجاع

بيد أن المسلسل في جوهره يلح على معالجة فكرة الخوف من العدو والخسارة في القتال ويبرز موقف المؤمن الشجاع، الذي ينهض بإعداد أقصى ما يستطيع من قوة وتدريب وعتاد وتنظيم وتخطيط مع استخدام قدراته العقلية والفكرية والذكاء في تقدير المواقف التي يكون فيها السلاح عنصرا حاسما، أو الحيلة التي تعوض ما يعجز عنه السلاح، ثم يتوكل على الله وحده، دون إغفال فكرة

الخيانة بوصفها سبب بلاء الأمة، وكأن المسلسل يذكر الأمة المهزومة بواجبها إزاء أعدائها، وما ينبغي أن تقوم به لتطهير صفوفها.

تتبلور على امتداد الحلقات التى انتهى بثها في منتصف هذا العام 2020م، رحلة البطولة الصعبة لكيان إسلامي قوي ينهض للقضاء على المغول وهزيمة الدولة البيزنطية، وقهر وجودها العدواني، وإيقاف جرائمها العنصرية وتحرشها بالمسلمين.

المفارقة أنه على الجانب العربي تناثرت بعض الأخبار عن رغبة جهة ما في إنتاج مسلسل يذاع في العام القادم عن خالد بن الوليد بعنوان "سيف الله"، يجلّي بطولاته وانتصاراته وإسلامه وإخلاصه لربه ودينه وأمته، اعتمادا على كتاب عبقرية خالد للأستاذ العقاد رحمه الله، فإذا بعاصفة هوجاء في الصحف ووسائل الإعلام تهب من جانب خدام الغرب وصنائع اليهود يشعلها الشيوعيون وأشباههم، تندد بالمسلسل، وترفض إنتاجه.. لماذا؟ لأنه في زعمهم يعنى استعادة الغزوات والفتوحات، وصورة القائد المحارب المقاتل فى سبيل انتشار الدعوة، وتدعيم الخلافة الإسلامية(؟!..)ويطرحون بديلا هو استدعاء التاريخ الفرعوني مثل أحمس أو رمسيس الثاني أو حتشبسوت؟!... ويذهبون إلى أبعد من ذلك- كراهية لسيف الله وشجاعته وعبقريته- فيقترحون على مؤلفي الدراما الذين تستهويهم الشخصيات الإسلامية فى صناعة الدراما، بدلا من خالد بن الوليد، أن يقدموا «ابن سينا» أو «ابن الهيثم» أو الخوارزمي، وغيرهم من العلماء والمفكرين الذين قدموا إضاءات فى الثقافة الإسلامية؟!..

ويتساءلون: لماذا الالتفات إلى شخصيات الخلفاء والحكام والقادة، دون العلماء وأصحاب الفكر والمعرفة، الذين تركوا بصماتهم على الثقافة الإنسانية كلها؟!.. وهو قول حق أريد به باطل! تجاهل هؤلاء الكارهون لخالد بن الوليد أن الدراما قدمت بالفعل سهرات وحلقات عن هؤلاء الأعلام وغيرهم. ونسوا أن خالد بن الوليد يمثل البطولة التي تحتاجها الأمة الآن في وجه من يحرمون أوطاننا الممزقة استقلالها وحريتها ووحدتها، ومن يغتصبون فلسطين ويحتلون القدس ويحلمون بالنيل إلى الفرات، ويؤكدون على استعباد أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله. وهو ما يجيب على سؤال: لماذا خالد بن الوليد اليوم؟!

أصول الدين

قال ممثل شاب: "سيف الله" مسلسل يتحدث عن أصولنا العربية ويشهد ملحمة تاريخية بعد تراجع دور الدراما المصرية في صناعة الأعمال التاريخية والإسلامية. واستطرد الممثل: إننا نتحدث عن سيرة صحابة وشخصيات هم أساس في أصول الدين الإسلامي. وأضاف: إن خالد بن الوليد رسالة لنشر الأفكار الصحيحة التي نأمل إيصالها للجمهور، وأتمنى أن يكون بداية لصناعة هذه النوعية في الدراما المصرية وخاصة الرمضانية فيما بعد. وأوضح الممثل الشاب: "لا بُد وأن تكون نفسك اللوامة هي مرجعيتك التي ترشدك الصواب من الخطأ، لأن النفس دائمًا ما تخدع الإنسان وتخلط دائمًا ما بين الغرور ورغبتك في فعل الصواب". ومع أن خصوم

الإسلام انتصروا لبعض الوقت في تنحية مسلسل خالد بن الوليد ووقف إنتاجه، فقد انتصرت إرادة الخير أخيرا، ويجري الآن تصوير المسلسل ، ويوشك على الانتهاء ليقدم نموذجا تحتاجه الأمة في وقت العسرة هذا.

إن أدب الصورة الجاد يجعل الحديث عن المؤسس عثمان، وسيف الله خالد بن الوليد، مرحلة جديدة من مراحل الصراع في معركة الوعي لتشكيل وجدان الأمة بتاريخها المضيء وقيمها المنيرة، أملا في استعادة حريتها وكرامتها واستقلالها، ودينها المختطف.

***

ملحـــــق

أي مستقبل للأدب ؟؟

تقديم وترجمة : عبده حقي

نظمت مجلة(لاكروا) مناظرة فكرية حول مستقبل الأدب (La litterature) استضافت لها كل من المفكرين (تزفتان تودوروف) و(فرانسوا بيغودو) كانت الغاية المحورية منها الكشف عما يمور به الواقع الأدبي من تحولات فكرية ومعيقات بيداغوجية جعلت نسبة مخيفة من التلاميذ والطلبة يعزفون عن الانخراط في مسالك الأدب درسا وإبداعا ومواكبة باعتباره نشاطا فكريا بات يتجاوزه عصر الرقميات بما أفرزه هذا العصر من إمكانيات هائلة للإبداع على مختلف مستوياته السمعية / البصرية على الخصوص ونعتقد أن الصورة في الوطن العربي هي أيضا بدأت تتشكل من نفس هكذا ألوان قاتمة حول مصير المنتوج الأدبي وبالتالي الإرث الأدبي ، فهل بات الخوف على ذاكرتنا الأدبية العربية خوفا مشروعا مثلما هو الواقع اليوم في فرنسا قلعة الفكر التنويري والثقافة والأدب والفنون !!؟ ثم ما هي الإجراءات الفكرية والبيداغوجية القمينة والناجعة من أجل إنقاد ما يمكن إنقاده في الجسم الثقافي المغربي والعربي عموما من داء فقر الأدب القادم في المستقبل القريب لامحالة ...

أما في فرنسا ومنذ سنة تقريبا ومع الدخول الثقافي لشهر يناير 2007 فقد ظهرت 313 رواية فرنسية فقط ، ما دفع ((تزفتان تودورف) و(فرانسوا بيغودو) إلى التساؤل حول دور الأدب وحول

دور التعليم في الإسهام في تشكيل الواقع الأدبي الراهن بفرنسا . إن عدم توفقهما ـ التعليم والأدب ـ يعلن بشكل واضح عن تحول ما في التعاطي مع حقل الرواية الراهنة على الخصوص كأسمى جنس سردي قادر بوعائه على استيعاب ما لا تستطيعه الأجناس السردية الأخرى من تحولات اجتماعية وسياسية وثقافية... ولمناقشة هذه الإشكالية استدعت كما سبقت الإشارة إلى ذلك مجلة (لاكروا) المفكرين (تزفتان تودوروف) المؤرخ والباحث الأدبي و(فرانسوا بيغودو) الروائي وأستاذ اللغة الفرنسية وهذه ترجمة لهذا الحوار/ المناظرة .

ـ لاكروا: ماهي في نظركما الأخطار التي تحذق بإبداع الخيال الأدبي في الوقت الراهن؟

ـ تودوروف : إنه الخطر الذي يأتي من مجموعة من المصادر التي لها علاقة بتصورنا للأدب ، وأول هذه الأخطار يوجد

في مجال التعليم الذي طرأت عليه عدة تحولات غداة انتفاضة 1968 والتي ساهمت فيها كثيرا ... لقد حاولنا فرض توازن بين المقاربات الخارجية ، البيوغرافية الإضافية مع تحليل عميق للأعمال نفسها ، لكننا ذهبنا بعيدا ، والنتيجة هي أننا ندرس اليوم إواليات وأدوات التحليل الأدبي بدل الأعمال الأدبية . وقد نجد هذا التصور المتعالي في الكثير من الكتابات النقدية الصحفية وأيضا لدى العديد من الكتاب الذين يبدون كالمشلولين أو المكبلين بسبب رغبتهم في البحث عن التوافق والانسجام مع النظريات التي يظنونها معاصرة .

. بيغودو : إن وضعيتي كأستاذ للغة الفرنسية تبين بالملموس الحالة التي تتصورونها عن التعليم ... نحن مشغولون أكثر بالبراغماتية خصوصا في الثانويات الصعبة... ولنأخذ مثلا بعضا من حرية اختيارنا بعلاقته مع التعليمات الرسمية التي تفرض علينا حسب رأيهم أن نرتبط بما هو شكلي ، وهذا ما أرفضه .. أن نتساءل ما إذا كان كافكا كوميديا أم تراجيديا هو سؤال سيأخذنا بعيدا حول المعنى والشكل ، وفي جانب آخر علينا أن ننصف الفكر الذي جاء بإصلاحات وبمنعطف 68 إذ من المفروض أن يساير التعليم دمقرطة المجتمع .

إن المرور عبر طرق تحليل شكلية يمكن من خلق تواصل حتى مع أولئك الذين لا يعني لهم النص شيئا قبل كل شيء.

ولنأخذ الخطاطة التي تمكننا كأداة إجرائية من تحليل النصوص المسرحية : باستخراج الموضوع ، الأهداف ، العنصر المعاكس ، العنصر المساعد ، يسمح لأي واحد أن يلج النص المسرحي حيث أن اللغة لا تعني شيئا وأن القصة لا توحي بشيء.

. تودوروف : أن يدافع الأساتذة عن التدريس هذا شيء عادي ، إنني أضع من جهة أخرى نفسي في موقف الطلبة

والتلاميذ إذ يبدو أن مسلك الأدب لم يعد يجتذب أي طالب في المستوى الثانوي ، وبهذا التصور الذي نكرسه عن الأدب

بات الطلبة لا يفهمون ما الجدوى من دراسة الأدب ، وأجد أن من بين الأسباب المنفرة في ذلك أن نفكر في استمالتهم بالتحدث لهم كل

يوم عن (العنصر المساعد) و(العنصر المعاكس) ، بل علينا أن نوضح لهم أن النصوص العظيمة السابقة تتحدث عنهم أي أنها بشكل أو بآخر تعطيهم معنى لحياتهم وأكثر من هذا أنها ستساعدهم على الحياة .

. لا كروا : إن سؤال المعنى متعلق بسؤال الالتزام في الأدب الذي تعرضتم له سابقا والذي تدافعون عنه السيد ((فرانسوا بيغودو) في كتابكم (تحولات الرواية) .

. بيغودو : أجل إن هذا الإصدار الجماعي يضم العديد من الفرضيات وما كنا نود أن نظهره من خلال هذا الكتاب الجماعي هو هذا التنوع ... إنه لمن الصعب أن نقارب التطبيق النقدي الروائي المعاصر تحت عنوانين أو ثلاثة ، ولا أظن أن الأدب الفرنسي الراهن يعاني من عجز في واقعيته وما وددت بسطه في كتابي هو هشاشة الأدب أمام مفهوم (الالتزام)

إن الروائيين الفرنسيين أخشى ما يخشونه هو أن يصبحوا منضوين تحت راية تيار نضالي كيف ما كانت مبادئه وأهدافه

لكن يجب التذكير أن سارتر قال من قبل : (أن ألتزم هذا شيء طبيعي) وهنا أختلف مع تودوروف ، وأعتقد أن كل الروايات الراهنة تتحدث لنا عن العالم الواقعي كل منها بأسلوبها وطريقتها الخاصة .

ـ لا كروا : هل هذا الطموح قد اختفى من الرواية الحالية كما أشار إلى ذلك تودوروف ؟

ـ بيغودو : أعتقد أن الرواية الحالية لا تِؤمن بعالم واحد ، وهي تلامس التيمات من زوايا ضيقة وصغيرة وما قمت به في كتاب (بين الأسوار) هو أنني بدل أن أطرح نظريات كبيرة عن المدرسة ، فقد اخترت أن أدخل إلى الفصل وأتابع عن كثب هناك ما يجري وطبعا لكل واحد أن يستنتج ما يراه في المجتمع ككل لكن من غير أن أتجرأ على الادعاء بقدرتي على تفسير العالم .

ـ تودوروف : الالتزام بالمعنى السارتري حاضر دائما ولا يمكننا أن نضعه كهدف .. إن الالتزام بمعنى الانخراط في قضية ما هو مناقض للفكر الروائي الذي ليس جنسا ديداكتيكيا .. ويمكننا أن نحلم يوما ما بأن يصير الكتاب مسؤولين بمعنى أن يتحملوا استمرار العلاقة بين العالم الذي يعيشون فيه والعالم الذي يخلقون ... أنا والآخر بمعنى الآخر الواقعي والمتخيل نشكل عالما واحدا ، مشتركا وهذا لا يعني عالما أحاديا وألاحظ أن هذه الدعوة هي ذات تمثل هزيل على مستوى الرواية المعاصرة .

ـ بيغودو : هذا هو ما يشكل جوهر اختلافنا الأساسي إنه هذا التسلسل المتبدي في كتابك بين العدمية: (العالم مرعب)
والفردانية حيث الأنا هو كل شيء والشكلانية (الشكل قبل العمق) الذي تعلقون عليه هزال الأدب وفقره .. لكن أظن أن هذه الأبعاد الثلاثة جد متنافرة .

ـ تودوروف : لست أنا من طرح هذا التسلسل ، بل إنها المرحلة ، فالأبعاد الثلاثة أو التيارات الثلاثة التي أشرت إليها لا تلتقي فيما بينها لكنها تتكامل ، ولكي نخرج من الشكلانية ليس لدينا خيار آخر بين العدمية والفردانية وعلى ما يبدو فهذان الخياران يتعارضان ، إنهما في الواقع ينطلقان من نفس العمق .

الكاتب العدمي لا ينخرط في العالم الذي يكتبه بما أنه قادر على رؤيته من الخارج ، أما الكاتب الفرداني فإنه يقتصر على تجربته الشخصية ، بينما الأدب يستطيع فعل أشياء أكثر من ذلك وليس من المعقول اختزاله في هذه التيارات السابقة ،

إن كتابي هو مرافعة من أجل قضية الأدب وهو تذكير بهذا الشيء الرائع ـ الأدب ـ الذي يساعدنا على الحياة .

ـ بيغودو : أعتقد أنه من السابق لأوانه النظر إلى هذا الواقع كناقوس خطر بينما أن استراتيجيتنا تتجلى في مواكبة الدينامية والجهد الأدبي ، وإذا قلنا أن الأدب في صحة جيدة علينا أن نثبت ذلك ونثبت أيضا أنه مستمر في عافيته وإنتاجيته.

ـ تودوروف : لا أدعي أنني أعطي نصائح للأدباء ، فأنا أعلم أنهم يكتبون على قدر استطاعتهم غير أنني ألاحظ في

بعض الأحيان أن عالمهم الخيالي يبدو رتيبا وهزيلا بله مختصرا في تجربة واحدة ومتكررة ، بينما كان من الممكن أن تكون أكثر غنى وتعددا وتعقيدا .

ويبدو أن الأدب الفرنسي اليوم يعاني من هذا الجانب مثلما هو الأمر بخصوص اهتمامه بالآخر إلاّ فيما ندر. وأرى من جهة أخرى أنه من بين أكثر الأسباب لهذا العوز والضحالة في الخيال الأدبي يتجلى في القصور المحيط بتصورنا للأدب ، فالتدريس والصحافة الأدبية تهيمن عليهما غالبا النزعات التي تحدثت عنها سابقا.

ـ بيغودو : أعتقد أنك قد قمت بتقييم العرض التوضيحي الذي قدمت قبل قليل ، وأقول لقد قمت ببسط لكرونولوجيا التطور الذي قاد الفن بصفة عامة إلى الانطواء على نفسه ... وهذا طبعا لا أود أن أسمعه ، ولأعطي مثالا على ذلك :

(أوليبيك) هذا الكاتب الذي يتموقع إلى جانب تيار العدميين فقد كان يتباهى دائما بقطيعته التامة مع التقاليد الشكلانية ويصرح دائما أنه غير معني بأهمية الأسلوب . وهذا طبعا ما نلاحظه في مؤلفاته ، ومهما يكن فلا يمكننا أن نزج بالمدرسة العدمية في هذا المسلك .

ـ تودوروف : لابأس أن أعيد ما قلته سابقا فالمدرسة العدمية ليست وليدة تيار(الفن من أجل الفن) إنها وليدة انكفائها على نفسها .

ـ بيغودو: أجل لكنك تضع هذه النزعات في نفس المستوى وتساوي بين الرفض والواقع أو تقوم بإسقاط حق الفن على الفن .

ـ تودوروف : على كل حال إنه يساهم في رفض العالم المشترك .

ـ بيغودو : إذا كان العالم المشترك غير موجود فهذا يعني أنه غير موجود ، وعلينا إذن ألا نفرض على الكاتب أن يسيطر على عالم

يعلم مسبقا أنه غير موجود ... لقد أثبت (بيكيت) أن العالم المشترك غير موجود وقد أنجز ما استطاع إنجازه في الرواية والمسرح . و(كافكا) أيضا لم يكن موافقا على وجود عالم مشترك ؛ وعندما حكت (كريستين أنفو) قصة حبها لم تتردد في القول بأن المسألة تتعلق بعالم مشترك ، غير أنه فقط عالمها الذي بنته في القصة . وقد لا نحب هذا الصنف من الروايات لكننا في المقابل لا يمكن أن نجردها من واقعيتها .

ـ تودوروف : لكن هل هذا هو الشيء الوحيد الذي علينا أن نطالب به تجربة إبداعية ما ، أن تكون واقعية ؟ أما بالنسبة لرفض مقولة العالم المشترك فإنني لن أؤيدك على كل حال : وإذا كان الأمر كذلك فلن ننشر مؤلفاتنا في المستقبل وسوف نلوذ بالصمت .

ـ بيغودو : لا يمكننا من دون شك أن نقدم للمتلقين تيمات عالمية نطمح عبرها إلى خلق ردود فعل وانعكاسات لديهم ؛

لكنني لست متأكدا أن هذا المطمح سوف يخلق بالضرورة كتبا قد تتجاوزنا أو تسهم في تغييرنا ، بل يمكن أن أقول أنها سوف تدعم وتثبت ما نحن عليه . ربما سأكون هنا مهووسا بالشكل ومتشبعا بقناعة أنه في أي عمل أدبي فإن الشكل واللغة والموسيقى هي المؤشرات الحقيقية الموجهة للتحول والتغيير عند المتلقي وبقدر كبير أكثر من التيمة أو المعنى اللذان لا ينتجان في النهاية غير وضع قار وثابت .

ـ لاكروا : إن تودوروف قد أشار في كتابه إلى الدور الهام للأدب ويلح أيضا على مفهوم اللذة ، الذي يبدو أنه لا يشكل الانشغالات الأساسية للكتاب الجماعي السالف الذكر .

ـ تودوروف : على فعل القراءة أن ينصهر أساسا باللذة ونحن ككتاب لن نوصل أي متلق لهذا الهدف بالإرغام ، قد

يحقق القارئ هذه اللذة إذا ما عثر على نشوة ورغبة ما في متابعة الرواية ؛ أن يتخيل كائنات وشخوصا غير الكائنات والشخوص التي يعرف وأن يقتنص المعنى ويكتشف الجمال أيضا .

ـ بيغودو : إننا لم نلامس هذا المفهوم ـ اللذة ـ في الكتاب الجماعي إلا نادرا لأنه وبكل بساطة قد عرفنا السبب ؛ ، فأستاذ اللغة الفرنسية ، أي أستاذ ، لا يحلم إلا بشيء واحد : أن يعثر التلاميذ على اللذة والمتعة في الكتب التي يقترحها عليهم للقراءة.

وعلى عكس هذا التصور فإن ثمانين في المئة منهم غير معنيين بهذه اللذة المفقودة ... وقد يكون قرار فرض هذا الهدف البيداغوجي عليهم حاملا لشيء من العنف ؛ عنف الإكراه وسيخلق بالتالي تمييزا وتفرقة لكوننا أرغمنا التلاميذ على الانتماء إلى هذا المجتمع الأدبي الذي سوف يشعرون فيه بالغربة ... من هذا المنطلق علينا أن نخلق مقاربات موضوعية وواقعية من أجل الذهاب جميعا أساتذة وتلاميذ إلى هذه اللذة والدرس الشكلاني واحد من بين آلاف الطرق المؤدية إلى ذلك .

***

قائمة مختصرة بكتب للمؤلف

أولا- كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته .

تيسير علم المعاني .

الأدب الإسلامي: الفكرة والتطبيق، .

محمد- صلى الله عليه وسلم- في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة .

المدخل إلى البلاغة القرآنية .

القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) .

تطور النثر العربي في العصر الحديث .

تطور الشعر العربي في العصر الحديث .

المدخل إلى البلاغة النبوية .

الأدب المقارن: المفهوم والتطبيق .

ثانيا- سرديات:

رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان).

الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان)،

زمن البراءة : النيل بطعم الجوافة (الجزء الأول من السيرة الذاتية)

زمن الهزيمة : النيل لم يعد يجري (الجزء الثاني من السيرة الذاتية)

زمن الغربة: النيل لا طعم له، (الجزء الثالث من السيرة الذاتية).

شغفها حبا، (رواية).

محضر غش، (رواية).

شكوى مجهولة، (رواية).

منامات الشيخوخة، (قصص).

الرجل الأناني(رواية)..

اللحية التايواني(رواية). ، طنطا(مصر)..

الشمس الحارقة (رواية).

مكر الليل والنهار (رواية).

مالك الملك (رواية).

تغريبة معروف الإسكافي (رواية).

مجلة الأنس! (رواية).

أم سعيد (رواية).

الشجرة المباركة(رواية).

ثالثا- كتب أدبية ونقدية :

قصتي مع محمد عبد الحليم عبد الله (الغروب المستحيل).

الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة رابعة).

الوعي والغيبوبة: دراسات في الرواية المعاصرة.

إنسانية الأدب الإسلامي.

حصيرة الريف الواسعة. .

أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة،

الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية). .

الحداثة العربية: المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية)

نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، بالاشتراك مع آخرين، تحرير وإشراف أسامة الألفي.

أمل دنقل عابرا للأجيال، بالاشتراك مع آخرين، تحرير وإشراف: أسامة الألفي.

مدرسة البيان في النثر الحديث.

الزاهد أنور الجندي: حياته. أدبه. فكره

لويس عوض : في ميزان الأدب والنقد .

المآذن العالية: رجال من ذهب .

حكايات الجواري والعبيد (الرواية المضادة).

المتنبي لا يخاف الإعراب.

الحلم والدهشة (دراسات أدبية)

رابعا- إعلام :

الصحافة المهاجرة: رؤية إسلامية،

خامساً- كتب للأطفال :

واحد من سبعة .

سادسا- كتب محققة :

فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية .

تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، أحمد مصطفى المراغي.

أحسن ما كتبت.

المتنبي ، عبد الوهاب عزام (تحت الطبع) .

***